

تفريغ الحلقات المرئية

سلسلة «القراءة»

لفضيلة الشيخ

أبي قتادة الفلسطيني

(عمر بن محمود أبو عمر)

تفريغ الحلقات المرئية:

سلسلة «القراءة»

– وهي سلسلة من ثماني حلقات سُجلت في شهر ٢ / ١٤٤٢ هـ، الموافق: ١٠ / ٢٠٢٠م –

لفضيلة الشيخ الوالد:

أبي قتادة الفلسطيني

(عمر بن محمود أبو عمر)

– حفظه اللّه ورعاه –

محرم ١٤٤٤ هـ - أغسطس ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

مقدمة

هذه سلسلة من اللقاءات سيكون الحديث فيها عن القراءة، وابتداءً أريد أن أقول كلمة –وربما هي شبه اعتذار أو شبه شرح لما ستكون عليه هذه اللقاءات–:

أنا أبغض كثيرًا أن أعود لشيءٍ كتبت فيه أو تكلمت فيه، حتى لو كان الكلام مقتضبًا وحتى لو كان الكلام فيه الخلل، أي ليس تامًا ولا مُستوعِبًا، فإعادة الحديث بالنسبة إليَّ صعب سواء كان عن طريق الكلام أو عن طريق الكتابة، فهذا يشق عليّ، حتى إني لا أستطيع أن أعيد كلمةً مرةً واحدة في لقاءين مختلفين، فلو أردت إعادتها لطلبٍ مهمٍ من بعض الإخوة أو لضرورةٍ ما؛ فإنها ستخرج شيئًا جديدًا وخِلقةً جديدة، ولذلك لا أحب أن أعود فأكتب، وبفضل الله فإنني إذا كتبت لا أكون قد تكلمت؛ فإذا تكلمت أضاعت علي الكتابة، وإذا كتبت أضاعت عليّ الكلام، بمعنى أني لا أستطيع أن أتكلم ما كتبته ولا أستطيع أن أكتب ما تكلمت به، ولعلي في هذا مُخطئ أو ضعيف، ولكن هذا حالي أشرحه للناس ليجدوا في ذلك الأعذار، فإذا اشتركت بعض الكلمات التي أقولها هنا مع لقاءاتٍ سابقة ومع كتابي «فن القراءة»، فهذا من الشيء الدارج الذي سيمشي على طريقة عدم الإرادة، لأني لا أحب التكرار.

وكذلك وجدت في نفسي ميلاً إلى بيان الإشارات، بمعنى أنني إذا تكلمت عن شيء فإني أحب أن أشير إليه إشارة أكثر مما أفصل وإن كان بعض الناس بالنسبة للحديث يرون أن كلامي فيه

تفصيلٌ كثير وفيه توسع ربما ينكرونه، كذلك في موضوع الكلام والحديث أجد أني أستطرد، وأفتح أقواسًا كثيرة مما يضيع -مرات كثيرة- العودة، ويضيع السامع فيما هو موضوع البحث حتى أنه يبتعد عنه؛ وعند العودة يكون السامع قد نسي الأصل الذي بدأنا منه.

على كل حال هذه أمور تتعلق بكيفية سماع هذا المتكلم، وربما هذا الأمر لا يعني الكثير، ولكنه من باب شرح النفس حتى لا يعتب أحد؛ فهذه قضايا نفسية يخلق المرء عليها وتؤثر فيه مؤثرات كثيرة منها طريقة كتابته وقراءته ومنشئه والكتب التي تربى عليها، وهذا شيءٌ يعرفه من يتابع أحوال هذا المتكلم من نفسه.

أولاً: ما هي القراءة

بالنسبة لموضوع القراءة العودة إليه هو من باب النصح للأمة؛ لأن فعل القراءة على الحقيقة هو أعظم فعلٍ في الوجود، أعظم فعل، لأن القراءة هي عملية تفكير والذي يميز الإنسان عن غيره هي هذه الحالة، حتى أنهم في دراساتهم في أنه متى يبدأ تطور الإنسان تطورًا مميزًا عن بقية الحيوانات؟ –هناك دراسات في هذا الباب– فوجدوا أن اللغة هي التي تُحصّل إنسانيته وتميزه، أي يبدأ مسير الإنسان مع الدابة عند النشوء، عند الخروج من الرحم، فيكون الأمر متقاربًا في النمو حتى إذا جاء النطق قفز الإنسان قفزةً كبيرةً جدًا، حيث يصبح هو ذلك الإنسان الذي كرم وعظم وأُخضعت له الأشياء التي خلقها الله عز وجل كرامةً له، فإذًا اللغة هي تلك الفطرة التي توضع في داخل الإنسان لتعبر عن إنسانيته وفطرته.

واللغة إما أن تكون متلوة وإما أن تكون مكتوبة، وهكذا نرى أن القرآن يسمى القرآن والكتاب؛ لحالتيه: لحالة وجوده كتابةً ولحالة قراءته تلاوةً، وهكذا هي القراءة. والمقصود بالقراءة في حالتيها: في حالة التلاوة وفي حالة الكتابة، والقراءة ليس نظرًا فيما يقوله الآخرون، ولكن كذلك القراءة هي حالة فيما يقوله الإنسان في نفسه، فالإنسان يقرأ نفسه، والحِكم التي نراها من قبل السلف عندما نقرأ حِكمًا للفضيل بن عياض، عندما نقرأ حِكمًا لسفيان الثوري، عندما نقرأ حِكمًا للغزالي، عندما نقرأ حِكمًا لابن تيمية، عندما نقرأ هذه الحكم لأهل التجربة، فإنما نشأت هذه الحكم من خلال قراءة النفس قبل كل شيء، قبل أن تكون قراءة للآخر، قبل أن تكون قراءة لما يكتبه الآخرون أو لما يفعله الآخرون، هي قراءة للذات.

مثلاً: عندما يتحدث العلماء عن الخوف من الجلوس مع النساء، عندما يعظنا سفيان الثوري رحمة الله عليه فيقول: «إياك أن تدخل على غير ذي محرم حتى لو دخلت عليها لتعلمها القرآن»، من أين نشأت هذه الحكمة؟ هذه قبل كل شيء نشأت من نفسه، وهذه أعظم قراءة وأعدل قراءة وأكرم قراءة؛ أن ينظر الإنسان إلى نفسه، عندما مرت بك امرأة –نتكلم عن الجانب الديني وهو المهم

في موضوع القراءة-: ماذا حدث في نفسك من حديث ومن كلام؟ أن تُنشئ الحكمة من حديث نفسك عند مرور المرأة بجانبك هذا هو أجل أنواع القراءات، وهذا هو الذي يثبت لك بعد ذلك صواب الكلام في الآخر، عندما يتحدث القرآن عن نفسك فتجد أن حديث القرآن عن نفس الإنسان هو حديثٌ تام وجلي وواضح وعميق؛ فحينئذٍ تدرك أن الذي تكلم هذا الكلام هو الله عز وجل.

إذن قبل كل شيء؛ القراءة العظيمة تنشأ من نفسك، فيقرأها للذات، وهذه القراءة التي إذا وجدت أنشأت الحكمة وأعظم الحكم هو أن ترى يد الله عز وجل وأن ترى كذلك كلام الله سبحانه وتعالى في كتابه وفي قرآنه.

فإذن المقصود من هذا كله هو أن نحقق -عندما أقول هذه الكلمة المقصود من ذلك هو أن نعرف- ما هي القراءة:

- أولاً: القراءة تقتضي المراقبة، فلا قراءة بلا مراقبة؛ سواء كانت قراءةً للحرف، أو كانت قراءةً للفعل، أو كانت قراءةً لدواخل النفوس، أو قراءةً للوجود وسنن الحياة، فقبل كل شيء؛ القراءة تقتضي الرصد، المراقبة، وأن توقف الحدث أو الكلمة بين يديك فيبدأ التأمل، إذن أولاً: لابد من الرصد.

- ثانيًا: لابد من حالة التأمل، وحالة التأمل هي حالة المحاكمة، فحالة الرصد هي حالة فطنة، وأعظم الحكمة هي الفطنة، بمعنى ألا يمر شيءٌ من أمامك بلا اعتبار، بل يجب أن توقفه، فإذا مر حدث من أمامك، وقال رجلٌ كلمة، ووقفت أمام الكلمة وأنت تقرأ فلا بد أن تنظر إلى الكلمات عن ماذا تدل، فانظر هذه الكلمة اليسيرة التي أتكلم عنها؛ هي أساس إنتاج المناهج إذا قمت بتطويرها، وأنا إنما أعطيك المبادئ الأولية لأنها تُنشئ بعد ذلك المناهج العظمى.

أي عندما أنت الان تريد أن تعرف منهج إمامٍ من الأئمة، فأنت تقرأ، ثم توقف هذا الإنتاج العلمي من أجل أن ترصده، توقفه رصدًا ومراقبة؛ من أجل أن تتأمله، فالتأمل هو محاكمة، التأمل هو

خليط من الفاعلي والقابل، التأمل يعني أن تنظر في الفعل بين يديك سواء كان كلمةً أو كتابًا أو فعلاً أو حدثًا أو أكثر من ذلك، وأن تتعامل معه تلقيًا وتتعامل معه إنتاجًا، بحيث يدخل في داخلك فتجري عليه عملية الرصد وعملية التأمل، وعملية التأمل التي تنتج بعد ذلك المعرفة.

إذن أولاً: لابد من الرصد المراقبة. ومن هنا نأتي الى أعظم ما نبهنا القرآن عليه، قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)﴾ [الزمر: ١٨]، لهم عقول لا تمر عليهم الأحداث بلا ترقب، تأمل أن إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما نتج من خلال حالة التأمل، عندما جاءا فأسلما، فكان سبب الإسلام هو أنهم راقبوا حركة النبوة في أنه يُكاد لها هذا الكيد الشديد العظيم، ومع ذلك تنتصر، في كل لحظة يظنون انهم قد أحاطوا بها وقبضوا عليها وأنه تم خنق وإبادة هذه الدعوة، أي أنهم مكروا لها مكرًا لو مكر بغير نبي لكان هذا المكر صائدًا منهيًا للخصم، ومع ذلك تتم النجاة وقلب المعادلة من احتمال نصر الكافرين إلى هزيمتهم، هذه حالة تأمل.

ولو نظرنا إلى إسلام أبي بكر رضي الله عنه الذي لم يقف لحظةً عندما دعاه، فإنه كان يراقب النبي صلى الله عليه وسلم، ويعيش مع النبي صلى الله عليه وسلم ويعيش مع صدقه، وكل المقدمات هذه كانت حاضرة في ذهنه وجلية وتنتظر تلك الشرارة؛ من أجل أن يُقدح الإسلام والإيمان في القلب ويكون بعد ذلك التميز.

إذن حالة الرصد وحالة التأمل هما أساس فكرة الوجود، حتى الذين ينتجون المعارف العلمية ويكتشفون الاكتشافات العلمية، كلها تنشأ من حالة إيقاف حالة الرصد وحالة التأمل، وليس التأمل بمعناه الجنوني العبثي، يعني يجلس الرجل وكما يتصورون واضعًا يده تحت ذقنه ويرسل ببصره إلى الأفق، ويقولون: هذا رجلٌ يتأمل، ليس المقصود ذلك، حالة التأمل هي حالةٌ علمية فيها استجماع المعارف السابقة وفيها استحضار الحدث الذي تريده، فدمج كليهما مع بعضهما البعض ينتج النتيجة التي يُراد بها من التأمل، إذًا التأمل هي عمليةٌ علمية قاسية صعبة فيها تقرير للقواعد.

ثانيًا: كيف نحول القراءة إلى علم؟

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

هذا هو اللقاء الثاني في موضوع القراءة، وقد تكلمنا في اللقاء الفائت؛ كيف نحول القراءة إلى علم؟ وكيف نرتقي بها من حالة المتعة التي يعيشها البعض ويحبها البعض؟ فالبعض تجده بفطرته يحب القراءة ويتعقب الكتب ويبحث عن الكلمات، وبعض الناس لا تجد عندهم حب القراءة فإذا فهمنا أن القراءة علم؛ فإنها لا تعود خاضعة لهذا المزاج ولهذه الحالة النفسية الخاصة، وعندما تكون القراءة مِزاجًا فحينئذٍ لا يمكن تطويرها إلى شخصٍ آخر، أو عندما تكون متعة فإننا نتركها مقابل متعة أخرى، ويمكن أن يكون بعض الناس عندهم متعة غير متعة القراءة، فحينئذٍ نترك الناس حسب أمزجتهم ونترك الناس حسب هواياتهم.

وهذا خطأ؛ فالقراءة علم وضرورةٌ مهمة لحياة البشر والخلق؛ لأنها تعبير عن إنسانيتهم، قلنا فيما تقدم: بأن الإنسان يختلف عن غيره بهذه اللغة الناقلة لما يقرأه الإنسان؛ أي لا يجوز لأحد أن يتكلم كلمة بلا قراءة، وجميع الأسئلة إنما يجاب عنها بالقراءة، بمفهوم القراءة الأعم -كما تقدم-، من قراءة الحدث، ومن قراءة الكتاب، ومن قراءة الكلمة، ومن قراءة النفس؛ أي أن يقرأ المرء نفسه.

فإذن علينا أن نحول القراءة من هواية إلى علم، ومن هواية إلى تعبد؛ لأن نهاية القراءة هو إدراك هذه الكلمات الأربع، فكل قراءةٍ سليمة صحيحة تنتج هذه الكلمات: «سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر»، البعض يقول: هذا كلامٌ جميل، وعند الناس: الكلام الجميل أشبه بالورد؛ فقط له رائحة ولكن لا تصنع منه البيوت، والورد يشم ولكن لا نستطيع أن ندخره مالاً من أجل أن نشتري به ونبيع ونأكل ونشرب، فللأسف الحالة الجمالية عند الناس قاصرة على ما يُتمتع به ولكنه لا يبني الحياة، وهذا خطأ.

فالأصل هو إدراك الجمال فيما هو نافع وإدراك الجمال فيما هو حق، وهذه أعلى درجات التعامل مع الله عز وجل، فأعظم درجات التعامل مع الله عز وجل نابعةٌ من الجمال وهذه العلاقة مع الله عز وجل هي أسمى أنواع العلاقات وأقواها وأكثرها أثرًا في الوجود بل هي الأثر الأعظم في الوجود.

وبالتالي كيف نحول القراءة إلى علم؟ هذا هو الذي نتحدث عنه بحيث تصبح القراءة التي هي عند بعض الناس متعة كيف يرقيها إلى علم؟ وعند من لا يراها متعةً لديه كيف يذهب إليها من أجل أن يمارس علمًا سواء كان يوافق هواه أو لا يوافقه؟ هذه هي القضية التي نبحث عنها ولو فهمنا هذا فهمًا صحيحًا لو فهمناه على حقيقته لوجدنا أن أشرف الأعمال التي يمارسها العبد هي القراءة، وهي كذلك أخطر الأعمال؛ لأنه بالقراءة ننتج معارفنا، وننتج قراراتنا، وبالقراءة ننتج ما نحب وما نكره، وما نقبل إليه وما ندعه، هذا هو المقصد في هذا كله.

فلذلك القراءة هي أخطر ما نرى، وحين نتعامل مع القراءة نتعامل معها على معنى الجدية، لا نذهب إلى الكتب من أجل وقت الفراغ ولا نذهب إلى القراءة من أجل وقت المتعة، بل هي تكون أساس حياتنا وأساس تطور أفكارنا وأساس قراراتنا في الوجود.

لنبحث مثلاً حتى نخرج من الإطلاقات إلى التمثيل: كيف تتخذ موقفًا من جماعة من الجماعات؟ كيف تتخذ موقفًا من حزبٍ من الأحزاب أو طائفةٍ فكرية عقائدية؟ كيف تتخذ موقفًا من حدثٍ ما؟ في المنطق التصديقي -أي التصديق- لا بد من مقدمات ونتيجة، فيجب -كما يقولون عندهم - أن ننطلق من المقدمة الصحيحة والهيئة الصحيحة لتنتج نتيجةً صحيحة، فلا يكتفون بقضية المقدمات الصحيحة، بل لا بد من هيئة صحيحة.

مثلاً: عندهم في علم المنطق سالب مع سالب لا ينتج نتيجةً صحيحة، مع أن السالب قد يكون مقدمة صحيحة والسالب الكلي بالوسط قد يكون كذلك معلومةً صحيحة، لكن السالب مع السالب لا ينتج نتيجةً صحيحة، مع أن المادة صحيحة، فلذلك هم يقولون: لا بد من هيئةٍ صحيحة معها، كذلك يقولون: الجزئي، والجزئي إذا كانت المقدمة الأولى جزئية والثانية جزئية مع أن

الجزئية الأولى قد تكون صحيحة في ذاتها والجزئية الثانية صحيحة في ذاتها، لكن هذا لا ينتج نتيجةً صحيحة، لا بد من الهيئة أن تكون صحيحة، إذن لا بد من المادة الصحيحة والهيئة الصحيحة في المقدمة الأولى مع المقدمة الثانية لينتج بعد ذلك نتيجةً صحيحة.

كذلك في موضوع القراءة عندما نتحدث عن طائفة من الطوائف وعن شخص من الأشخاص، عن حدث من الأحداث، لا بد أن نقرأ هذا الحدث قراءةً تامة، وألا ننظر فقط إلى حواشيه لا بد أن نذهب إلى العلل المؤثرة في الحدث، وهذا يعني ممارسة علمية، حالة علمية، أنت ترى الأمر خطيرًا.

لماذا في تاريخنا تنبهوا لهذه النقطة؟ هل رأيت في تاريخنا مناظرة مع جاهل؟ هل تظن أن الجهال في تاريخ هذه الأمة لم يكونوا يتكلمون في حواريهم وجلساتهم ويتحدثون عن الحاكم الفلاني وعن الجماعة الفلانية وعن العالم الفلاني، لماذا لم تذكر أقوالهم في كتب أهل العلم؟ لماذا لا يقولون: وكان الناس يقولون: كذا وكذا، لا يذكرون هذا، مع أنه لا يمكن أن يخلو المجتمع من هذا الحوار وهذا الكلام، لماذا؟ لأنه كلامٌ لا قيمة له، لأنه لم ينتج هذا الكلام بطريقةٍ علمية، ولذلك لم يستحق أن يحفظ ولا أن يراعى ولا أن يقام له الشأن، إنما يقام الشأن للعلم الحقيقي، وهذا تمثيلٌ واقعي وحقيقي لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، وأنت الآن ماذا يعلمك هذا في حده الأدنى؟ في حده الأدنى إليك؟ يعلمك ألا تهتم لما يقوله الناس، فلن يبقى، هو لن يبقى في الدنيا، أما بقائه في الأخرة فمعروف كلٌ بحسبه، بحسب الذنب والإثم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، هذا مخالف، الذي يتكلم بغير علم هذا مخالف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾، هذا أمر إلهي يتعلق بقضية العلم ويتعلق بقضية تبني مسائل العلم، أنه لا يجوز لك أن تأخذ مسألةً ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، أن تأخذ مسألة لم تستوعبها، لم تفهمها، لم تأتي إليها من طريقها الصحيح لتنتج لديك المعرفة الصحيحة.

انظر، النظر إلى العلل المؤثرة، هذا الفعل ما هي ما هي علته؟ ربما نمثل كذلك الآن بهذا المرض الذي استشرى في العالم «كورونا»، سألني أحدهم هل هناك كتابة إسلامية واعية لهذا الحدث العالمي؟ أي كيف نقرأ هذا الحدث قراءةً إيمانية؟ التي هي القراءة الواقعية، الإيمان لا يعني الخروج عن

الواقع، القراءة الإيمانية يعني القراءة الصادقة التي ينتجها الواقع كما هي، يعني ليست قراءة مادية؛ هذه قراءة علمية، أن تقرأ الشيء على ما هو عليه في تكوين الله عز وجل له.

فهذا المرض كيف نشأ؟ كيف يرتبط هذا المرض بحالة الطاعة والمعصية؟ ما هي رسالة باعثه لنا؟ أي الذي أرسله وهو الله عز وجل، سواء كان من خلال فعل البشر أو من خلال رسالة سماوية جائحة لم يعرف الناس لها مقدمات، فهل نظرنا إلى نفس الله عز وجل؟ ما الذي يريده من هذا المرض؟ ما هي الرسالة التي ينبغي أن نتلقاها إيمانيًا؟ وأعود وأقول للأسف كلمة: الإيمان عند الكثيرين تعني خروج عن المادة، خروج عن الواقع إلى أفقٍ آخر وهذا غير صحيح، أنبه عليه لأهميته.

وأنا تعجبت وراجعت نفسي فلم أجد إلا تلك «الخربشات» التي يقولها الناس في وسائل التواصل، كلام.. هل هناك نظر إلى تداعياتها؟ هل هناك نظر إلى تداعيات هذا المرض الشديد والحالة التي أصابت العالم؟

القصد من هذا: أن القراءة العلمية تُنتج تعبدًا عظيمًا وتُنتج عقولاً عظيمة، لم نر في تاريخنا عظيمًا إلا وقد أنتجته القراءة، إلا وقد أنتجه البحث، إلا وقد أنتجته الدراسة، هذه قضية مهمة، النظر فقط إلى مكامن الذات، وهو الاستعداد الفطري للعبقرية، هذا موجود، لكنها تموت هذه الحالة إن لم توجد البيئة والنماء لها، وأعظم النماء والبيئة هي بيئة القراءة، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

ثالثًا: كيف تصبح الحياة هي القراءة بلا فتور؟

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

إذا علمنا فيما تقدم بأن القراءة علم وأنها عملٌ جاد، وكل عملٍ يبدأ برغبة نفسية، فالأطفال يبدؤون حياتهم في ممارسة هوايات، لكن هذه الهوايات ترتقي إلى إنتاجٍ معرفيٍ عظيم، ربما يُشكل منعطفًا في تاريخ البشرية، هذه الاكتشافات الكبيرة إنما نشأت من هوايات صغيرة، ومن هنا يأتي دور التربية الأولية، وهذا ربما نتحدث عنه، ولكن: ما هي البيئة التي تنتج قارئًا وتنتج عارفًا وتنتج مبدعًا؟

هنا لا بد أن نتكلم عن مسألة، وهي: إذا فهمنا هذا الذي تقدم؛ فهذا يوجب علينا أن نجعل القراءة هي الحياة، ولا تتوقف عملية القراءة ولا تكون خاضعة للمزاج، بل لا بد أن تصبح الحياة هي القراءة بلا فتور وبلا تخلف، وهذه سيرة السلف، فشعار السلف هو كلمة الإمام أحمد بن حنبل عليه رحمة الله عندما قال: «مع المحبرة إلى المقبرة»، وذلك أنه روي عنه عليه رحمة الله أنه كان يحمل كتابه وأوراقه وأقلامه ويجري إلى مجالس التحديث مع أنه بلغ درجة الإيمان، فقيل له: يا أحمد مع هذا؟ أي وأنت في عمرك تجري طلبًا للسماع، قال رحمه الله: «مع المحبرة إلى المقبرة».

ونحن نعرف القصص الكثيرة من حياة سلفنا في الحرص على القراءة إلى آخر لحظة من لحظات حياتهم، كالقصة المشهورة عن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة عليهما رحمة الله وهو يذاكر أحد تلاميذه مسألة وهو على فراش الموت، فقال: لا أحب أن ألقى الله عز وجل وأنا جاهلٌ بها.

فإذا تحولت القراءة عندهم ليس فقط لعملية اللذة، ولكن لشعورهم بأن هذا من الواجب، وهو جزءٌ من تسبيح ربنا وتعظيمه، وإدراك المعاني في الوجود، الله سبحانه وتعالى بث المعاني في الوجود التي تتعلق بالمعاني الداخلية من الحب والبغض التي هي المعاني المعنوية والمعاني المادية، فالله عز وجل أقام لها السنن وأقام لها المعاني، وكلما اقتربت من هذه المعاني أدركت حكمة الله عز وجل، وأدركت سبوحيته وقدوسيته.

فإذن عندما يستشعر المرء أن القراءة واجبة وأنها حالةٌ إنسانية تعبر عن إنسانيتك أولاً، وأن إماتة العقل يعني إماتة الإنسان، وإماتة التفكر تعني إماتة الإنسان في داخلنا، فهذا يُدخلنا في باب أن القراءة هي رقي أخلاقي، ورقي عبادة، ورقي إدراك، عندما نأتي إلى بعض سلفنا فنجدهم يتحدثون عن خلو عالمٍ عن قراءة كتاب من الكتب، فإنما يعتذرون لتقصيره ويعتذرون لنقصه، عندما يقولون: هذا العلم لم يطلع على الكتاب الفلاني، وهو مثلاً من أهل الفقه، يقول: فلم أطلع على الكتاب الفلاني في كتابه، فماذا ما تعني كلماتهم هذه؟ تعني الاعتذار عن نقصٍ فيه.

إذن القراءة كمال، ونقص القراءة نقص، وأتكلم هنا عن إنسانية الإنسان وعقله، وإنما يُعرف المرء في كماله وفي أخلاقه بالقراءة، ونحن نعلم أن المرء لا يستطيع أن يجلس مثلاً مع كتابٍ يتحدث عن خُلق الكرم، وهو يقرأ فيه ويقرأ سيرة الكرماء في التاريخ الإسلامي مثلاً، وهم أعظم الناس كرمًا في تاريخ البشرية، فلو قيل من أعظم الناس كرمًا في تاريخ البشرية؟ لعلمت أنهم الصحابة رضي الله عنهم ومن سار على دربهم من هذه الأمة، بل إن الكرم في الأمم الأخرى قليلٌ جدًا في أصله، وإنما تعلمت الأمة العربية الكرم من ميراث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولذلك من خصائص هذه الأمة العربية ثم الإسلامية الكرم.

تأمل أن رجلاً يجلس ويقرأ حديث الكرم، ويحب بعد ذلك هذا الحديث، هل ترى أن هذا الحديث لا يؤثر في أخلاقه كرمًا؟ إذا عاش مع الكرماء في أخبارهم، مما لا شك فيه أنه سيتأثر من هذه الأخلاق على درجةٍ من الدرجات بحسب استعداده وبحسب توفيق الله عز وجل له.

وإذا جلس المرء مع الصادقين أي أقصد مع كتبهم وسيرهم؛ فإنه ينتج صدقًا.

وتأمل نفسك أنت الذي تسمع هذا الكلام وأنت تقرأ عن قيام الليل؛ سيصبح عندك الدافع والرغبة الشديدة بأن تتشبه بهم.

إذن القراءة ليست إنتاجًا معرفيًا ذهنيًا فقط، وإنما القراءة إنتاج لأخلاق، ومن هنا لأنك بحاجة إلى تربية نفسك أخلاقيًا فإنك بحاجة إلى تربية نفسك معرفيًا، ولذلك لا يجوز لك في لحظة من اللحظات أن توقف عملية القراءة.

فالقراءة هي تلك المحطة التي نجلس فيها لنغتسل من أدران الحياة فيما نُربى عليه من سيئات، وأقصد بهذا التالي: عندما تنزل إلى السوق وهذا السوق يكثر فيه الحلف الكاذب ويكثر فيه الفساد في الخداع والخيانة والْمُكس وغيره، فهذا توسيخ للذات أنك دخلت هذه البيئة، فستتأثر، فما الذي ينظفك من هذه الحالة الاجتماعية التي تعيش فيها؟ هو أن تأوي إلى أضداد هؤلاء، ومن هنا نتجت قاعدة علمية في تاريخنا، وهي قاعدة علمية مهمة جدًا، وهو أن من أعظم طرق التربية قراءة سيرة السلف، فصارت قراءة كتب السلف مهمة جدًا، على قاعدة القرآن ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، والعلماء نظروا إلى أن القرآن في أوله خطابٌ للنبي صلى الله عليه وسلم، يعني أول المخاطبين بالقرآن هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا نجده في القرآن، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]، فالقرآن قبل خطابه لأي أحد من العالم للمسلم والكافر -القرآن خطابٌ للمسلم والكافر- لكنه قبل كل شيء خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وتلك القصص التي قصها الله عز وجل في القرآن المقصود بها ابتداءً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن توجه إليه.

فالقرآن علمنا أن أول طرق تعليم البشرية وتفقيهها هو أن تقرأ سيرة الأوائل؛ لأن هذه القراءة تنتج حالة التمثل وقد خلق الإنسان فطرةً على هذا المعنى، وهذا المعنى هو التمثل، أي بمعنى أن يكون عندك المثال، كما أن الإنسان مفطورٌ على العبودية فلإن لم تعبد الله تعبد غيره، كذلك مفطورٌ على التمثل، أي الاتباع، ومن هنا فقد أوجد الله عز وجل من أجل كمال التدين في البشرية أن بعث رسولنا صلى الله عليه وسلم يمثل لنا المثال لهذه العبودية، كيف نتج هذا المثال؟ نتج هذا المثال من خلال ما يتلى عليه من الصور التي سبقته من الأنبياء ومع أنه تربى عليها صار هو الأعظم فيها، يعني

ليس هناك أعظم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن كيف تربى؟ كيف رباه الله عز وجل؟ تربى بالاجتباء بالاصطفاء بالعطاء الرباني الخاص، وكذلك تربى على مائدة القرآن بقراءة سيرة الأوائل.

فإذن القراءة هي بهذا المعنى، هي في زماننا هذا هي حالة تنظيف، ولذلك -وأختم هذا اللقاء- وجدت أن المرء إذا قرأ كتابًا واحدًا، تجد أثر هذا الكتاب على حياته كلها، كتابًا واحدًا فقط، إذا قرأ كتابًا واحدًا لو كان صغيرًا قرأه، فستجد هذا التأثر عليه في حديثك معه، أنا أستطيع أن أعرف ماذا قرأ هذا الذي زارني أو زرته من خلال حديثه، تجد أنه يعيش هذا الكلام الذي قرأه، يعيشه، وحتى أن بعضهم يحب هذا، وهذا شيءٌ جيد، إي إذا قرأ كتابًا يحب أن يقرأه على الآخرين، أن يعرف به الآخرين، أن يشرح للآخرين، هذا شيءٌ جيد.

لكن القصد من هذا: أن القراءة تصنع التغير، من هنا لا ينبغي أن تتوقف القراءة؛ لأنه ليس هناك نهاية لدرجات القرب من الله عز وجل، ولا لدرجات التربية، وكلنا خطاء وكلنا مذنب وكلنا جاهل فتأتي القراءة من أجل أن تكشف جهلنا فترقينا وتربينا وتحسن أخلاقنا، ولذلك القراءة لا بد أن تبقى دائمًا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

رابعًا: أريد أن أستفيد أكثر من القراءة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

دائماً هناك سؤال: أريد أن أستفيد أكثر من القراءة؟

يتحدث الناس عن فوائد للقراءة لا أجدها في نفسي فماذا أفعل؟

في الحقيقة؛ هذا يقتضي عدة أمور ينبغي أن يفصل فيها:

أولاً: أريد منك أن تنتبه لهذه النقطة في حياتك كلها، وليس فقط في موضوع القراءة؛ ليس هناك إنسانٌ غيرك، بمعنى أنك لست شيئاً خارج عن إطار الآخرين ولا الآخرون خارجون في إطارهم عنك، فإنَّ من أعظم ما علمناه القرآن أن الإنسان هو الإنسان، والمشكلة فينا أننا نظن أننا غير وأن الآخرين غير، وهذا خطأ كبير جداً، فعندما نصاب ببلاء نظن أننا وحدنا في هذه الدنيا الذين أصبنا بالبلاء وأن كل الناس وهم خارجون إلى أعمالهم ويسوقون سياراتهم ويجلسون في بيوتهم، أنهم في غير بلاء، أو عندما نتنعم ونُصاب بنعيم فيأتينا ظن أن هذا النعيم قد اختصصنا به دون البقية، وهذا غير صحيح، أو نظن أن ما ينشأ عندنا من مشاعر هو خاص بنا وليس في بقية البشر، وهذا غير صحيح؛ أريد منك هذه النقطة أن تضعها في أذنك لأنني أُقدم لك وأعرف أهميتها في كل جانب من جوانب حياتك، وبالتالي هي الجانب المهم في عالم القراءة، لكن أنا يهمني أن ابني عليها قاعدة للقراءة ولغيرها، وأعتقد أن هذا يهون عليك معنى العبادة التي يطلبها الله عز وجل منك.

إذن أعود وأقول: الإنسان منذ آدم إلى يوم تقوم الساعة هو أنت، ما تحس به في كل شيء يحسه كل إنسان، وما يعتريك من عوارض بشرية في داخلك وفي نفسك يعتري كل أحدٍ من البشر، ولذلك القرآن يتحدث عن الإنسان باعتبار جنسه، والجنس، والجنسيات من الكُليات المعروفة في علم المنطق كما يقولون، والمعنى: ليس هناك إنسانٌ خاص وإنسانٌ عام وإنسانٌ مميز، بل كلهم يحسون بنفس المعنى، حتى أن بعض أهل القراءات يقولون ويقررون تقريراً مهماً: أن الألم الذي يصاب به

الإنسان، يعني هناك رجل لو عضدته يتألم، ويبدأ بالصراخ والآخر يصبر، بعض الناس يقول: هذا جسمه يتحمل وهذا جسمه لا يتحمل، علمياً ثبت أن هذا غير صحيح، بل ثبت أن الألم حالة واحدة في الإنسان، لكن كيف يتلقاها في دماغه؟ وكيف يتعامل معها؟ ربما هذه أنا أقولها لأنهم يقولونها كثيراً ويقولها الكثيرون ممن يدرسون الإنسان.

فإذا فهمت أن الإنسان هو الإنسان فما يعتريك يعتري البشر، ولكن هناك من يتجاوز هذه الحالة بالتربية، وهناك من يقع فيها ويصبح أسيراً لها، وهذا هو الفارق بين عقلٍ وعقل، فهنا افترق العقل والنظر للأشياء، رجل وقعت عليه مصيبة كأن جاءه خبر موته ابنه، فهذا وهذا، كلاهما وقع الخبر عليهما مؤلماً بنفس الحالة، لكن هذا صبر وكتم ما في قلبه وتذكر حديث: (ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الصبر)، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، الحمد لله رب العالمين، والآخر عقله لم يأت إلى هذا المعنى؛ لأسباب تربوية، ولأسباب ذاتية؛ كيف تعامله مع الله عز وجل وهكذا، فبدأ يصرخ ويسب القدر، فكلاهم تألم، لكن هذا تلقى الألم على معنى معرفي ما، عقله ونفسه تلقته على معنى معين، وهذا تلقى على معنى معين، اختلفت الحالة، فهنا اختلاف الحالة وليس في تلقي الألم.

الآن نأتي إلى موضوع القراءة إذا فهمت هذه فهماً صحيحاً مع أنها تحتاج إلى شرح طويل وموسع، لكن إذا طبقت هذا على القراءة، أنه هنا تقرأ وهنا تقرأ، طبعاً أنا أتكلم عن بداية القراءة، هناك أخلاق فطرية بلا شك، هناك الوعي والفطنة تختلف من إنسان لإنسان، ولكن يمكن تجاوز هذا الفارق من خلال التربية من خلال المراس من خلال المِران، يعني لو أتيت إلى رجل –خِلقةً– الله عز وجل بنى بنيته على قوة، وبعض الناس هكذا يكون قوياً في خلقته، وبعض الناس يكون أقل منه قوة في أصل خلقته، لكن يمكن لهذا الذي هو أقل بالتدريب يتجاوز هذا ويصبح أقوى منه، وهذه هي الحياة، هذه نراها في حياة البشرية، ندركها، وكذلك في موضوع القراءة، الكثير من الناس عندهم هذه الفطنة لكن يضيعونها، فيأتي من هو أقل منهم فطنة ويبدأ بتنمية نفسه فيتجاوزهم.

وهنا أتينا إلى مسألة، يقول لك: أنا لا أستفيد من القراءة، فأقول: ما الذي أدراك أنك لا تستفيد؟ ما هي اللحظة التي تستطيع أن تقول أنا استفدت؟ فقط جاءتك المعلومات ثم بعد ذلك

تقول: أنا نسيتها، هل تظن أنها لم تترك آثارها الصلبة والقوية، القراءة وطأتها شديدة على الفكرة، يعني عليك أن تفهم هذه النقطة تماماً، القراءة ضاغطة، قوة ضاغطة على النفس؛ لأنها أعظم مؤثرات الوجود، فما الذي أدراك أن هذه القراءة بوطئها لم تترك آثارها على نفسك وعقلك؟ أنا أسأل دائماً هذا السؤال: متى تبينت أنك تعرف السواقة؟ عندما جلست أول مرة وراء المقود ومعك المدرب فأنت لا تدري شيئًا، ثم بعد ذلك تنتهي إلى أنك سائق ممتاز، كيف نميت هذا، متى أدركت أنك في لحظة من اللحظات صرت تفهم هذه السواقة؟ بنيت شيئًا فشيئًا حتى أنك لا تستطيع أن تعرف الفرق إلا في البدايات والنهايات، أما خلال الأثناء فما بين الدرس الثاني والثالث الخلاف يسير جداً لا تكاد تدركه، إنما تستطيع أن ترى بين الدرس الأول والعاشر، أما هذه الفروق اليسيرة في نموك فأنت لا تدركها خلال حياتك، بل لو حاولت تذكرها لم تجد هذا حاضراً في ذهنك، كذلك القراءة.

والذي تعاني منه من القراءة في أنك تضيع «تفوت وتنسى»؛ يعاني منه كل أحد، فلا تجزع عنه، لكن الفرق بينك وبينه هو ربما رأى أن هذا عليه أن يتجاوزه فيقرأ الكتاب مرة ثانية أو يقرأ كتاباً آخر، فيبدأ بالمقارنة بين الكتاب الآخر والكتاب الأول، أما هذا الرجل فقال: لم أستفد شيئاً فرمى الكتاب ولم يعد إليه، هذا فارق، الذي تنساه ينساه الناس، والذي تعاني منه من القراءة يعاني منه الناس، ولكن المطلوب هو المتابعة، حين تتابع بعد ذلك تجد أنك تستطيع أن تتكلم، ربما تكون المعلومة عائمة في بداية الأمر، فتحتاج إلى تكرار من أجل أن تترسخ وتصبح واضحة المعالم، فلذلك فإنَّ الذين يشكون من الآثار الذاتية نحو القراءة؛ إنما يتم تجاوز ذلك عن طريق المتابعة، بعد ذلك تجد هذا الإنسان قد تميز، وبماذا تميز؟

بعض الناس يتميز، فتقول: لا، قراءته تختلف عن قراءتي، بل هو عانى مثل ما عانيت، لكنه تجاوز هذه المعاناة إلى الدوام ولم يقف أمام هذه العوائق وقفة عاجز، أو وقفة يائس، بل تجاوزها إلى ما هو أعظم منها، هذه المعاناة التي تجدها في القراءة هي معاناة كل دراسة وكل تمرين في هذه الحياة، الذي يشتغل في الحديد يعاني هذه المعاناة، الذي يشتغل في النجارة يعاني هذه المعاناة، لكن بعد

ذلك تترسخ لديه صفة التاجر صفة النجار صفة الحداد وهكذا، بعد ذلك تترسخ بالقراءات المتتالية صفة العالم، صفة المفكر، صفة العاقل، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

خامسًا: أنواع القراءة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

القراءة ليست حالةً واحدة، القراءة حالات متعددة، وكل قراءة لها قواعدها، سواء كانت متعلقة بقراءة علماء معينين، فكل عالم له قراءته؛ تقرأه من خلال قواعد عامة تجتمع فيها معنى القراءة، وقواعد خاصة تتعلق بهذا العالم، وكذلك قراءة العلوم، العلوم مختلفة لها قراءات مختلفة، هناك قواعد عامة للقراءة الكلية وهناك قواعد خاصة لكل قراءة تتعلق بهذا العلم، لكن كل حالة تدخل في معنى القراءة ولا شك.

والأستاذ محمود شاكر رحمه الله استبدل كلمة «تخريج» فجعلها «قرأه»، علامة أن القراءة ليست هي الاطلاع، يعني واحد قرأ شيئًا يعني اطلع عليه وعلم ما فيه، لكنَّ القراءة أعمق من ذلك، القراءة -كما تقدم- لا بد لها من عملية رصدٍ ومراقبة ولا بد لها من عملية تأمل، وبعد ذلك يأتي الإنتاج، أي تأتي عملية إنتاج هذه الحصيلة التي تمت من خلال الحوار الذي نتج بينك وبين المطلع عليه أو المنظور إليه، فكل علمٍ له قراءة خاصة، وكل شخصٍ له قراءة خاصة، وكل بحثٍ له قراءة خاصة.

وكما يقسمون المقدمات، مثلاً يقولون: هناك مقدمات علم، فهناك مقدمات كتاب، فعندما تقرأ مقدمة العلم، يعني مقدمة ابن خلدون مقدمة علم، مقدمة صحيح مسلم مقدمة علم، مقدمة الكامل لابن علي في الضعفاء في الرجال مقدمة العلم، ليست متعلقة بكتابه فقط، متعلقة أن الكلام في الرجال أمرٌ اجتهادي، أنه عملٌ اجتهادي له قوانينه وله قواعده وله أسسه، وهناك مقدمات كتب، مقدمة كتاب يضعها الكاتب من أجل أن يبيّن ماذا يريد من هذا الكتاب، هذا شيءٌ يعرفه طلاب العلم في تقسيم هذا العلم، لنقل مقدمة، فيأتي الشراح ويقولون: والمقدمة تقسم إلى مقدمتين إلى مقدمة علم وإلى مقدمة كتاب، ولا شك أن مقدمة العلم أوسع وأعظم وأجل وأهم لأنها حينئذٍ تصبح

مادة للنظر والبحث وهي تصبح علماً بذاتها، ومقدمة الكتب تتعلق بهذا الكتاب، وإذا أردنا أن نحملها ونطورها لتكون لشيء آخر نحتاج إلى ثقل كبير وإلى عملٍ مهم.

لكن على الجملة عندما نقرأ مقدمة العلم ماذا نحتاج؟ هل يكون الكاتب حاضرًا أكثر من حضور العلم نفسه؟ هذا تنازعٌ بين الموضوع والذات، كما يقسمه المناطقة، يعني هل عندما نقرأ العلوم -نقرأ علماً ما- هل نستحضر الكاتب أكثر، أم نستحضر الموضوع أكثر؟ لا شك أن قراءة العلوم تحتاج إلى استحضار العلم أكثر.

فمثلاً: عندما نذهب إلى كتاب «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث» لابن كثير رحمه الله، هل يكون حضور العلم نفسه أولى عند القراءة؟ أم نستحضر ابن كثير؟ واستحضار الكاتب مهم لأنه آراء في داخل هذا العلم وفيما تنازع فيه العلماء، ولكن يكون النظر إلى أنه علم، ولذلك ترون الفارق عندما نقرأ كتابًا علميًا يتعلق بعلم أو بمقدمة علم، فإننا نحتاج إلى النظر إلى العلم نفسه أكثر من نظرنا إلى الكاتب نفسه، ويصبح بعد ذلك قراءة الكاتب فيما يكتب خاصًا بإنتاجه واجتهاده يكون في مرتبة ثانية، أو ثالثة، يعني أولاً لو جئت إلى مبتدئين في علم الحديث وبدأت لهم بقراءة الاختصار لابن كثير، هل من المهم لهؤلاء المبتدئين أن تبيّن ما في هذا الكتاب من أقوال وخالفه فيها بعض أهل العلم، أو أنه اختار أقوالاً فيها خلاف بين أهل العلم؟ لا، أنت تهتم أن تشرح هذا الكتاب باعتباره توطئةً لعلم، فإذن هناك في بعض المرات لا تحتاج كثيراً إلى النظر إلى الكاتب، وإنما تحتاج النظر إلى العلم.

وهناك ما ينبغي أن يستحضر الكاتب حتى في نظر الأسلوب، ليس فقط في العلم ولكن في نظر الأسلوب، أنا دائماً أقول: لماذا يحب المعاصرون كلام ابن تيمية رحمه الله أكثر من غيره؟ حتى في المسائل الفقهية تجد أن ابن تيمية رحمه الله حتى في عرضه لمسائل الفقه، لا يتقيد بطرق الفقهاء في المناظرات تجد أنه يتحدث حديثًا انسيابيًا وكأنه يجلس معك، لا يتقيد بما يتقيد به الفقهاء في كتبهم التي صيغت فقهياً بما نعلم، بأنه يذكر أول شيء الكتاب ثم يذكر الباب ثم بعد ذلك يذكر المتن ويذكر بعد ذلك التعريف ويذكر بعد ذلك الدليل ويذكر قبل الدليل الشرح، فتجد أن هذا التركيب

تواضع عليه أهل العلم ويحتاج إلى تهيؤ، إلى أن نُهيئ القارئ فقهياً ليقرأها على طريقة الفقهاء، ومن هنا في هذه الكتب نحتاج إلى الشيخ، لأنها مرتبة بطريقة تلائم أهل هذه الصِنعة.

لكن لو أراد هذا المصنف أن يكتب هذا الكلام لغير أهل هذه الصِنعة فهو لا يتقيد بهذه الهياكل، وبمثل هذه الموضوعات -نسميها الموضوعات على معنى تواضع الناس عليها-، فيحتاج إلى شرحٍ آخر وإلى طريقة أخرى، لبيان هذه العلوم من غيرها، ومن هنا نشأت الكتب الجديدة في صياغة الفقه وإن كان الناس الآن يعودون إلى قراءة الكتب القديمة؛ لكن لو نظرت إلى الكتب التي كتبت فقهياً في هذا العصر فإنهم أرادوا -أي واضعوها؛ مثل كتاب «فقه السنة» للشيخ السيد سابق رحمه الله- أي يصوغوها لغير المتخصصين ولغير الفقهاء، وربما ينكرها أصحاب السمت الفقهي الخاص، فهم لا يرونها تجري على طرق الأقدمين، لكنه أراد أن يسهل الفقه للناس فلم يأت بالصيغ والطرق ولا التدقيق في المصطلحات التي عليها أهل هذه الصِنعة.

وأنت تحتاج أحيانا إلى معرفة الكاتب حتى في الأسلوب، أي أن هذا الأسلوب طرحه، كما قلت في هذا: أن ابن تيمية رحمه الله يحبه الناس؛ لأنه يتكلم بهذه الطريقة كأنه يجلس معك ولا يقف على طريقة من يتابع هذا الصياغة على طريقةٍ ما، فعندما يريد أن يتكلم أحد الفقهاء ويكتب عن الإيمان فكيف يصيغ هذا الكتاب، سيصيغه بطريقة الفقهاء، والغير متخصص يحتاج إلى من يشرح له حتى هذه الصياغة.

مثال ذلك: نحن نعلم أن المنطق دخل في كل علوم الإسلام، والمنطق طبعًا قد دخل في كتب المتكلمين وصار لصيقاً بهذا المبحث، ودخل في أصول الفقه وصار لصيقاً بهذا المبحث، فلا تستطيع أن تدخل كتاب أصول قبل أن تعرف قواعد المنطق في الحد؛ لأن الأصول صيغت على طرق الحدود، بل أُلفت كتب في الحدود والتعريفات، فأنت بحاجة إلى هذا العلم من أجل أن تفهم هذه العلوم كمدخل، حتى عندما تقرأ «قطر الندى» فقوله -وقلت هذا في شرحه-: «واخترت هذا لأنه من الجنس القريب وهو أولى من الجنس البعيد» كيف تفهمون هذا؟ فلا بد أن تكون عالماً بالمنطق.

ولكن «القطر» قد كتبه لأهل عصره؛ لأن علم المنطق علمٌ يدرس للمبتدئين، كما يدرس القرآن وتدرس السنة وهو علمٌ من علوم الآلة، ولكن إذا أراد أحد أن يكتب الآن في زماننا هذا فلا يستعمله.

وما هو علم المنطق؟ هو آلةٌ قانونية، فتجد أن المرء يفهمه فهمًا يسيراً، لكن لو أراد المرء اليوم أن يقرأ «قطر الندى» فإنه سيجد صعوبة ومشقة، لماذا؟ لأن هذا الكتاب كتب في عصرٍ، وقد كان الناس يستخدمون هذه الوسيلة في علومهم، واليوم لا يستخدمونها ولا يعرفون هذا، ولذلك اضطر الناس أن يكتبوا كتباً للنحو بعيدًا عن هذه القواعد المنطقية، فصيغة هذه العلوم.

من هنا يأتي دور معرفة الكتاب هل هو ليلائم هؤلاء أو لا يلائم؟ هل يلائمني أو لا يلائمني؟ الكثير من الناس الذين وجدتهم يصابوا بخيبة أمل عندما ينصحهم بعض المعاصرين: اقرأ كتاب كذا، أي النصح لإنسان يريد التثقيف، فيرسلونه إلى الكتب التي لا يملكون أدوات فهمها، فيصاب بردة فعلٍ في إنكار القراءة وهجرانها، ولذلك نحن أبناء هذا اليوم، ونحن أبناء هذا الزمان؛ فنحتاج أن نقرب العلوم بما يلائم هذا العصر، وأما العلماء والمتخصصون فيجب عليهم أن يقرؤوا أدوات العلم التي صيغت فيها كتب علم الأقدمين، لا بد من هذا.

حتى في الكتب التي تسمى بالسلفية تجد فيها هذه العبارات المنطقية والعبارات الكلامية، عندما نأتي إلى قياس الشمول يعني عندما تذهب إلى «إعلام الموقعين»، أنت ستضطر إلى معرفة بعض المصطلحات الكلامية، وبعض المصطلحات المنطقية، مع أنه كتابٌ فقهي، أولاً هو فقهي وكتابٌ أصولي وصاغه صاحبه على طريقته السلف بعيداً عن تعقيدات المتكلمين والمنطقيين، ومع ذلك أنت بحاجة إلى هذا العلم فالمتخصصون يحتاجون إلى علومٍ خاصة للقراءة والولوج إلى هذه الكتب؛ لأنها صيغت بعلوم عصرهم، لكن حين تقربها اليوم لأهل هذا العصر ونريد لهذا العلم أن ينتشر، فإما أن نقف على طريقة أن هذا العلم لا يُبذل إلا لأهله، فنزيده تعقيداً، وقد كان مما أُخذ على أبي زكريا الفراء رحمه الله أنه أراد أن يقرب النحو حتى يكون لعبةٌ بيد الصبيان، أي يعرفه الناس، يعرفه

الأطفال، وهذا عند بعضهم من المنكرات، بمعنى أن بذل العلم حتى يكون هملاً وسهلاً لكل لاقط، يقول: هذا إضاعة للعلم، فيأتون بالتعقيب.

ومن هنا بعض الكتب إنما صيغت من أجل تبقى هذه العلوم حبيسة لأهلها، ومن أراد أن يصبح من أهلها فعليه أن يجد طريقاً له مستويات من البحث والنظر، ونحن لا نستطيع اليوم أن نجبر الناس على هذا الطريق، والقلة يسلكونه، ويوجد بعض الناس الذين يسلكون كتب الأقدمين وتشرح لهم وتُعّرف علوم الأقدمين علوم الآلة التي يدخلون بها على العلم والفقه وعلى العلوم وعلى الكتب، لكن الأكثر اليوم نحتاج إلى قراءةٍ مهمة، وهو كيفية صياغة هذه العلوم بما يلائم علوم آلة العصر، كيف يكتب؟ حتى نقرب هذه الكتب إلى الناس.

والواقع الذي نعيشه اليوم يدل على وجود مدرستين، مدرسة تقوم بهذا الشأن، لا أريد أن أتكلم عن الأخطاء الآن سنأتي إليها، وهناك طبعاً تسهيل للعلوم بطريقة فجة بطريقة غير مستوعبة وفيها إنكار، بمعنى هناك سب لكتب الأقدمين بأنها كتب غير نافعة وكثيرة الحواشي ومعقدة وكذا، وهذا خطأ، هذا ينبغي أن نوقفه لأنه دال على الجهل، لأنه لا يمكن ولوج هذه العلوم إلا بإدراك هذا المسلك الذي سلكه سلفنا، قبلنا أم أخطأنا هكذا هو الواقع، فكما يقول عبد السلام هارون رحمه الله: «إنما يبدأ الاجتهاد بقتل الماضي بحثًا»، بمعنى أنه لا يجوز لك أن تتكلم في علوم الأوائل حتى تكون بصيراً بأسلوبها وقواعدها وموضوعاتها أي مجال البحث فيها، الموضوع أي مجال البحث، فسب هذه الكتب هذا مرفوض.

لكن هناك مدرستان اليوم، والظاهر أن إحدى المدرستين بدأت تغلب:

المدرسة الأولى تقول: علينا أن نبقى على طريقة الأوائل في قراءة كتب الأقدمين كما هي وضرورة قراءة علوم الآلة معها، وهذا في الحقيقة مع فوائده وأهميته لكنه لا يجعل العلم مشاعاً، ولا يجعل العلم سيالاً بين الناس، يعني هذا سيبقى خاصًا لناس دون ناس.

والطريقة الثانية: إعادة كتب الأوائل بما يلائم لغة العصر، وما يحقق السيولة، وما معنى السيولة؟ أي النفاذ، أي هذه العلوم تنفذ إلى الناس في كل اتجاهاتهم، وهذا في الحقيقة يقوم به أناس لهم مراتبهم من العلم، ودعا إليه الكثيرون من أهل العلم؛ أنه لا بد من هذا المسلك، ولا بد من سلوكه لأناس استوعبوا الماضي بحثاً، استوعبوه، استوعبوا لغة الأوائل، واستوعبوا مهمات هذا العصر وأسلوب هذا العصر وصاغوه.

أعطيكم مثالاً: «دروس اللغة العربية» للغلاييني، هذا كتابٌ قيم مهم جداً، والناس لا يأتون إليه ولا يجعلونه في أي مكتبة من مراتب الدراسة النحوية واللغوية، لماذا؟ لأنه كتابٌ صيغ بلغةٍ معاصرة لعصره، الرجل معروف تاريخه لمن يدرك قيمة هذا الرجل.

وهكذا قل في موضوع الإيمان، كيف نتكلم عن الإيمان؟ والفقه، فهناك ما يسمى اليوم الفقه المنهجي، أي يصيغون الفقه بطريقةٍ معاصرة، في الحقيقة هؤلاء نحتاجهم نحن، مع بقاء المدرسة الأولى لبقاء الصلة بها، نحتاج إلى أن نصيغ العلوم الإسلامية السابقة بلغةٍ معاصرة، يقوم عليها عظماء استوعبوا الماضي، واستوعبوا الحاضر، وأنتجوا هذا الإنتاج الذي يقرب العلوم ويجعلها سيالة بين الناس، مع المحافظة على المدرسة الأولى لئلا ينقطع نسب العلماء مع هذه الكتب التي هي قدر التاريخ الإسلامي وعلوم أهل الإسلام.

هذا ما أقوله وبالله التوفيق وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

سادسًا: عالم الكتب في العصر الحديث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

مما ينبغي الاعتراف به أن القراءة هي أكبر مظلوم في عصرنا هذا، وقد نازعها كثير من الأعمال الإنسانية، ودخلت كثير من التطورات الجديدة التي تمنع القراءة، ومن ذلك هذه الأدوات الحديثة في التواصل: التليفون الجديد الذي فيه الألعاب الكثيرة وفيه كذلك الأفلام، فالقراءة تكاد أن تضمحل في العالم كله على العموم، وأكثر ما تكون اضمحلالاً في العالم الإسلامي، فعالم الكتب عالم ضعيف وفقير، ومهما رأينا من التطورات فما زالت الكتب التي تعني بالثقافة وتعني بالعلم وتعني بحالة التدين، ما زالت ضعيفة وتعاني فقرًا شديدًا، هل يمكن أن نعيد إحياء القراءة بهذه الطرق؟ بمعنى: هل يجوز لنا أن نطور أدوات القراءة؟ بلا شك أن هذا السؤال صعب ويكتنفه الكثير من العوارض.

مثلاً: لو قلنا اليوم: أن الفيلم والتصوير يستطيع أن ينشر ثقافةً ما من جهةٍ ما؟ هل يمكن أن نقول هذا؟ إذا قلنا بمثل هذا الطرح ستجد أن كثيراً من الكلاسيكيين والتقليديين سنجد أنهم يعارضون هذا أشد المعارضة ويرفضونه، مع أننا نجد أن عالم السينما وعالم الصورة قد طغى على عالم الحرف، وصار يفرض نفسه بقوة، ولا يعني هذا أن عالم القراءة سيبيد وينتهي ولا يكون له وجود، هذا لا يتصور، لكن الحديث إنما يجري حول إمكانية استيعاب بعض العلوم عن طريق الصورة، عن طريق المسلسل، عن طريق الفيلم.

ففي الغرب الآن يوجد انتشار كبير لنشر ثقافة التاريخ من خلال السينما، بل إن كثيراً من الأمور التاريخية لا يعرفها الإنسان الغربي العامي، نحن نتكلم عن سيولة الثقافة، عن الثقافة السائلة التي تسري بين الناس، وليست الخاصة لمتخصصين ولدارسين، فعند إنتاج الأمة سنحتاج إلى سيولة هذه الثقافة في الأمة، أي عندما نريد أن نحيي سيرة تاريخنا الإسلامي، فهذا لا يكفي أن يكون

خاصاً بأناس متخصصين بالتاريخ، أو بمتدين تدينًا خاصًا يهتم بالقراءة؛ لأن ليس كل متدين أصلاً يهتم بالقراءة، لكننا نحتاج إلى أن يصبح التاريخ جزء من تفكير الأمة، جزء من حضور الأمة.

لأعترف أن ابني وهو صغير -يمكن في السنة الخامسة أو الرابعة لنقل- كان يعرف عن محمد الفاتح في فتح القسطنطينية أكثر مني لما دخلت الجامعة، وسبب هذه المعرفة الجيدة إنما هو مسلسل محمد الفاتح أو فيلم محمد الفاتح القديم، لا أدري إذا بقي أو انتهى أو لم يعد منتشراً هذه الأيام، كان يعرف عن قصة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١)﴾ [قريش: ١]، هذه الآية من خلال رحلة سلام، وأنا ربما درستها في وقتٍ متأخر، وهو عرفها في الصف الأول وأنا لربما سمعتها في وقت متأخر، وهكذا.

والغرب اليوم ينشر ثقافته وأفكاره من خلال السينما، يعني لا تستطيع في الغرب أن تقول: أن هناك من قرأ عن «النزول النورماندي» الذي نزله الجيش الواحد والعشرون في الحرب العالمية الثانية والذي أدى إلى تحطيم الجيش الهتلري الألماني، لكنهم يعرفون تفاصيل هذا النزول -نزول النورماندي- من خلال الفيلم، هناك فيلم خاص يشرح هذه القضية في بدايته مدة طويلة، ويشرح نزول الجيش الأمريكي على السواحل الأوروبية، تاريخ الإنجليز مع الاسكتلنديين، هذا تستطيع أن تقرأه من خلال فلم، وينتشر من خلال فيلم، يعني هناك من نشره من خلال فيلم، وهكذا.

وأحد الصحفيين -ربما هذه الكلمة فيها مبالغة لكن أقولها- وهو صحفي وأعتبره يقرأ، يقول لي: بأن مسلسل «قيامة أرطغرل»، هذا أعظم ما أنتجته الدعوة الإسلامية، رغم أن أحد المؤرخين -ومنشور هذا الكلام أظنه عن راغب السرجاني- قال: ليس فيه من الحقيقة التاريخية سوى «٥٪»، والباقي كله من خيال المؤلف ومن صناعات الدراما للضرورة.

وأذكر لكم قصة -نتكلم في الواقعية فقط أكثر من المطلقات- كان عندنا في السجن في بريطانيا كان هناك قناة اسمها قناة الأفلام خاصة بالسجن، أي السجن يبثها إلى داخله إلى المساجين فقط، ويحضرون أفلامًا خاصة، يعني نظيفة ليس فيها مناظر سيئة وكذا، لنقل: نظيفة، وكانت جيدة مثل هذه الأفلام التاريخية التي تحدثت عنها، مثل فلم القلب الشجاع «Braveheart»، «independence»، مثل فيلم «البحث عن الجندي ريان»، هذه أفلام أنا أذكر رأيتها في

السجن، وهي أفلام تاريخية، ففلم «البحث عن الجندي ريان» هو يمثل نزول نورماندي، و«Braveheart» يمثل الصراع الاسكتلندي الإنجليزي، «Independence» الذي هو الصراع الأمريكي مع الاحتلال الإنجليزي، هكذا هي الأمور.

فأحد الأخوة توفي رحمه الله، وهو ليبي اسمه فرج أسأل الله عز وجل أن يتقبله، فذهب وأحضر فلمين مشهورين، ما أظن أن أحداً من أهل هذه الحياة يجهلهما من المسلمين، الفلم الأول فيلم «الرسالة» والفيلم الثاني «عمر المختار»، فأحضر الفلمين وقدمهما للمسؤولة، كانت هي المسؤولة عن قناة الأفلام، مسؤولة المكتبة، هي التي تحضر الأفلام، اتصل بأصدقائه في الخارج أرسل لي بالبريد فأرسلوا له في البريد، فلما دخل الفلمان إليه حملهما إلى مسؤولة المكتبة، وقال: انظري إلى هذين الفلمين وهذه أفلام تاريخية جيدة، وبالفعل بثت أولاً فلم الرسالة، والفلم عادةً يبث أسبوع، ومرات يبث ثلاث أيام ثم يتوقف، وأنا في السجن كنت في وحدة خاصة بعيدة منفصلة عن السجن، المهم لما بث هذا الفيلم سمعنا صراخًا لسود لما طلع بلال فوق الكعبة وأذن في نهاية الفيلم، فالسود في كل السجن بدوا يصرخون منتشين وفرحين بأن هذا الأسود أذن فوق الكعبة، ثم بث فيلم عمر المختار وبالفعل تأثر أهل السجن تأثراً كبيراً جداً، حتى أن الإنجليز المتعصبين قدموا تقريراً بمنع بثه، وبقي الفلمان يبثان أكثر من شهرين، فقدم المسيحون النصارى الإنجليز المتعصبون تقريرًا لإدارة السجن هذه أفلام دعوية تبشيرية، حتى لا يكون مشكلة فهذا الأمر يتطلب دراسة، فأوقف الفلمان ثم أوقفت القناة كلياً، لأنه صار عليها مشكلة قانونية، لأنكم تشترون نسخةً واحدة وتبثونها إلى ٧٠٠ سجين، فخافوا من الملاحقات القانونية من قبل شركات الإنتاج فتوقفت القناة كلياً، على كل حال هذه صورة لقضية انتشار الثقافة عن طريق السينما أو عن طريق المسلسل.

أرجع إلى كلمة الصحفي عن مسلسل أرطغرل يقول: أنا لا أعتقد أن الدعوة الإسلامية أنتجت في تاريخها كله ما يعادل أرطغرل! طبعاً أنا تعجبت من هذا! لكن بلا شك هو مسلسل مشهور، أنا ابني وضع صورة أرطغرل في هاتفه، حتى من ابني تعجبت! مرة يفتح التلفون أمامي وإذا بصورة أرطغرل، فلهذه الدرجة، ولا أعرف أنه كان يحضره.

القصد من هذا: بأن هناك ثمة ثقافة تنتشر في طرق الوسائل الجديدة تحتاج إلى عناية، ولا ينبغي أن نهجرها، وأنا أقول لبعض التقليديين الذي يقول: لا، لا بد أن نسلك الطريق القديم.

أقول: الطرق القديمة عندها ألف معوق ولا بد وجود أناس يقتحمونها ويكونون على بصيرةٍ منها من العلماء والمتخصصين، لكن هذا ليس مقدوراً عليه بالنسبة لعموم الناس، ولابد أن نجلب الناس إلى تاريخنا وإلى لغتنا.

فأنتم تذكرون –ولا أدري ربما أعمار من يسمع تلائمه– كان هناك برنامج أنتج في الكويت كان يتحدث عن اللغة العربية للصغار الحروف والتركيبات وكذا، وقد أثر، اسمه «افتح يا سمسم»، كان له أثر كبير جداً، وتأثر الأطفال به.

فالقصد: بأن هذه تحتاج إلى إبداع عظيم، وإلى قدرات خاصة في أن تنتج هذه العلوم بطرق ووسائل مع حفظ الحكم الشرعي، يعني أنا والحمد لله لم أراه، ولا أريد أن أراه وأعتبره منكر من المنكرات وهو تمثيل الصحابة رضي الله عنهم، وأقصد به خاصةً النبي صلى الله عليه وسلم وهذا متفق عليه، إلا من بعض الروافض، الروافض رسموا بعض ملوك الروافض رسموا صورةً متخيلةً للنبي صلى الله عليه وسلم وهي موجودة في قصورهم وفي كتبهم، وأما هذا الذي سمي بمسلسل «عمر ابن الخطاب» فأنا أعتقد بأن هذا خطأ كبير جداً، لا أريد أن أخوض في أسبابه لكن يكفي أن يسمع الناس رأيي أن هذا المسلسل ما كان ينبغي أن يكون، سواء كان من جهة الحقيقة ومن جهة العلم ومن جهة الجواز واحترام الصحابي، وهذه قضية ربما نتكلم عنها كلاماً خاصاً مستقلاً.

لكن من أهم صور تعليم التاريخ الآن هو هذا الذي نتحدث عنه، وهذا مأخوذ من طرق العلماء في إنتاج التاريخ بطريق ما، محمد علي باكثير عليه رحمة الله، وهو أول من أتى بالشعر الحديث، والناس ينسبون الشعر الحديث إلى نازك الملائكة أو إلى بدر شاكر السياب وهناك الصراع في أيهما بدا؟ والصواب أن محمد علي باكثير عليه رحمة الله هو أول من كتب الشعر المنثور، الشعر الحر، فيصيغون التاريخ بطريقة مسرحية، فأحمد شوقي يصيغ التاريخ بالمسرحيات الشعرية، وكان لها أثر، وتنتشر المعاني والأفكار من هذه الطرق الحديثة، اليوم كذلك نحتاج إلى هذا، وهذا يحتاج إلى

قدرات عظيمة ويحتاج إلى مال، يحتاج إلى وسائل ويحتاج إلى تبني، يعني الدولة التركية الآن في تبنيها لنشر التاريخ التركي المرتبط بالإسلام هذا شيء كبير جداً، بغض النظر عن الحكم التفصيلي فيها، لكن كفكرة عامة هي قضيةٌ ناجحة ونحتاجها وربما توصل العلوم بالطرق التي أجبرنا عليها بهذه الوسائل المعاصرة وهذه التسهيلات التي فرضت إيقاعها على عالم الفكر المعاصر.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سابعًا: أعمال معينة على القراءة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

قلنا في اللقاء السابق موضوعاً مهماً وهو يتعلق بقضيته استثمار أدوات جديدة صارت رديفة للقراءة، وربما عند البعض بديلاً عن القراءة، وهذا ما لا ينبغي، لا يوجد شيء يغني عن القراءة، لكن هناك أعمال رديفة ومعينة للقراءة، وهذا يفتح لنا باباً في قضية تنمية عمل القراءة، فالقراءة عمل وعملٌ مهم كما تقدم فيما تقدم من الكلام.

لكن كيف ننمي حالة القراءة عند الطفل؟

هناك مشكلة كبيرة تتعلق بالنسبة للقراءة، ولأداة القراءة، وهي اللغة، أغلب من يترك القراءة يتركها لضعفه في أداة القراءة، أنه لا يستطيع أن يفهم الكلام ولا يستطيع أن يربط الكلام، وهناك مشكلة أصلاً في انتشار العامية الجديدة التي هي ربما يستطيع أن يحلل الحرف، ولكن لا يستطيع أن يمشي معه بسرعة، فهذا ينبغي أن يُعاد فيه إلى تنمية الطفل، تنمية أدوات القراءة عند الطفل، ما هي أدوات القراءة التي ينبغي أن تُنمى، لا بد من تنمية الأداة، أولاً: اللغة؛ فلابد من تنمية اللغة، وتنمية اللغة هذه قضية كبيرة جداً ينبغي أن تكون منتشرة من داخل الأسرة وكذلك في المدرسة، والمشكلة اليوم أن المدارس لم تعد تنتج أناساً يملكون أداة القراءة، لا يقرأون.

يعني إذا كان دكتور شريعة يقول لطلابه: أنا أمضيت عمري كله لم أقرأ كتاباً كاملاً، هذا دكتور في الشريعة ويدرس ومع ذلك في حياته كلها لم يقرأ كتاباً كاملاً، هذا يدل على مشكلة عميقة في داخل المجتمع طبعاً هذه الصورة ليست نادرة، لا يقول أحد: هذا إنسانٌ نادر، للأسف المسألة شاملة ومطّردة في كثير من الشخصيات والأحوال.

وبالتالي؛ الطفل يمكن أن ننمي عنده القراءة، أولاً: لا يمكن أن ننتج قارئًا محبًا للقراءة وهو يعاني من القراءة، أي يعاني من مجرد القراءة، هناك معاناة تتعلق بنوع العلم وهذه ممدوحة، هناك معاناة

تتعلق بأن تقرأ الكتاب لتستفيد منه ويكون الكتاب مما ينبغي أن تعاني لاستخراج معانيه، حينئذٍ يكون هذا الكتاب كنزاً عظيماً ويستحق هذه المعاناة وهذا الحل، ولذلك العلماء في كل الفنون وضعوا متوناً وهذه المتون ما وضعت من أجل الفهم، وإنما وضعت من أجل الحفظ، «المتون للحفظ والمطولات للفهم»، هذه قاعدة، ولذلك فإنَّ المطولات في الحقيقة تصلح للمبتدئ أكثر من المتون، لكن يُبدأ بالمتون لأنها أولاً تكون قصيرة فيسهل حفظها، وهذا مهم جداً لأن أول مراتب العلم هو الحفظ، وثانياً: تكون قاصرةً على المهمات، ولا يكون فيها بناء الفروع المتسعة والكثيرة، فلذلك يُبدأ بها -كما قلنا- أولاً: لأنها سهلة في الحفظ، وثانيًا: لاقتصارها على المهمات، والمطولات والموسوعات تكون أسهل في الشرح لكنها تكون كذلك أكثر اتساعًا في قضية الفروع وما يترتب على الفروع من مسائل.

أعود إلى هذه الكلمة بأنَّ الكتاب الذي يشق عليك بنسبتك وبصفتك طالب علم، الذي يشق عليك هو الكتاب الذي يقدم لك المعلومة بسهولة، فأنت عندما تبحث تجد أن المعاني أكثر، وعندما يكون الكتاب شاقاً في أغلبه، إذا كان للأوائل ليس للمتأخرين، إذا كان للأوائل فيكون كنزاً مليئاً بالفوائد والعطايا.

فكيف ننمي القراءة؟ إذا كنا نتحدث عن حالةٍ عامة فنحن لا نملك أدواتها، نحن لا نملك المدارس وقد تغربت وجدبت وصارت مأوى لغير العلم ما هو لشيءٍ آخر غير العلم، إنما الحديث عن الأفراد، يعني لو سأل سائل كيف أنمي أنا القراءة؟ هذا هو السؤال الذي نقدر عليه، نحن لا نتحدث الآن عن خطة تتعلق بأمة أو بدولة أو ببلد كيف ننمي في أهلها القراءة؟ هذه قضية فوق طاقتنا، وإنما الحديث أنا أسأل كيف أنمي القراءة؟ فنقول: لا بد أولاً أن تنمي لديك أداة القراءة، وذلك بأن يكون لك قراءة دائمة تسهل لك عدم الوقوف عند كل كلمة لتستطلعها فحينئذٍ تعجز وتتعب وقلة الإنتاج -وهذه قاعدة- «قلة الإنتاج تؤدي إلى القنوط»، أن النجاح هو الذي يؤدي إلى استفزاز الإرادة لمزيدٍ من التقدم، كلما نجحت في شيء كلما شعرت بضرورة الارتقاء، لكن عندما تمكث

لمعلومة لصفحةٍ واحدة، مثلاً: لو جئت لكتاب فصفحة واحدة قضيت فيها يوماً، فحينئذٍ تيأس وتعرض عن القراءة، فإذن أنت عليك أن تنمي القراءة.

من هنا نأتي إلى مسألة مهمة، وهذه مسألة معاصرة لم يكن يعاني منها الأوائل لكننا نعاني منها في هذا العصر، ومضطرين أن نسلك ما لا نحب، ومن ذلك: قراءة الروايات، فالروايات لم تكن قديمة العلماء، وأقصى حد عندهم كتب الأدب والأغاني في الروايات المتعددة المتعلقة بفنٍ ما، وعندهم ألف ليلة وليلة وإن كانت غير مشهورة عند الأقدمين وإنما شهرها الأوروبيون، وعندهم كليلة ودمنة، ويعرضون عنها فهذه قليلة، ولأن العلم كان مبذولاً في المساجد ومربوط في المسألة الدينية ربطاً مهماً، وحين يقرؤون تلك العلوم حتى قراءة الشعر إنما يخدمون به الشريعة، فكان العلم واجبًا ومهمةً عظيمة دينية تعبدية فكان فيه الجد كل الجد.

اليوم الناس هاربون من القراءة، فكيف نقربهم؟

الناس سلكوا مسالك متعددة لأبنائهم وأصدقائهم، الشيخ عبد الحي الكتاني وهو من أشهر من اهتم بالقراءة حتى أن مكتبته يقال: لا يوجد لها مثيل في العالم، كمكتبة شخصية، كيف علمه عمه القراءة، أحضر له قصص «أجاثا كريستي»، «Agatha Christie»، ربما الكثير من طلبة العلم لا يعرفون «أجاثا كريستي» وهي كاتبةٌ بريطانية كانت تكتب في جريدة سيارة أسبوعيًا، تكتب قصصًا بوليسية، طبعاً هي أرقى من «أرسين لوبين»، المنتشرة بين الناس حتى والدي فأول مرة سمعت بـ «أرسيل لوبين» من والدي، قال: هذا لصٌ ظريف كأرسين لوبين، بعدها سألت والدي: من «أرسين لوبين»، قال لي: لا أدري، يقولوا أرسين لوبين، فأحضر له قصص «أجاثا كريستي»، وهي قصص بوليسية تشد القارئ، أول شيء هي مترجمة وترجمتها سهلة وتشد القارئ، يريد أن يتابع، الكلمة تشدك لما بعدها والحدث يشدك لما بعده حتى تصل إلى نهاية القصة من القاتل، وبعد ذلك ترك هذه الروايات وصار من أعظم الناس إقبالاً على الكتب العلمية الجادة في الحديث وغيرها وفي الفقه والتاريخ وفي اللغة وغيرها، حتى كان جماعاً للكتب بطريقةٍ هائلةٍ جداً، ومشهور عنه ذلك، لا أريد أن أتوسع فقد أنا أتكلم عن هذا الجانب فيه.

فإذن علينا أن نقرب، يمكن للمرء أن يقرب أبناؤه بالقراءة عما يشد الطفل، فمن المشقة أن تجبر الطفل على المهمات، وهنا أريد أن أقول كلمة: نحن لا نحب أن نكسر خاطر الطفل، والصواب أن كسر خاطره يؤدي إلى تقوية إرادته، ليس على المطلق، لكن في أغلب الأحيان، ويقول المربون حتى في الغرب: بأن إجبار الطفل على شيء يقوي إرادته، وهذا يذكرنا بطريقة ابن عباس رضي الله عنهما في تربيته لعكرمة البربري تلميذه النجيب، عكرمة تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما، كان ابن عباس رضي الله عنهما يربط رجله بالحديد ويقيده ويلقي عليه ليعلمه، حتى صار ما صار.

وهنا أذكر في كتاب «حياتي في الفن»، لـ«ستانيسلافسكي» الروسي وهو مشهور في الغرب بتطويره للمسرح، ذكر قصةً غريبة استفدت منها في هذا الكتاب الضخم، أنهم عندما كانوا يعلمون البنات خاصةً رقص الباليه، وهو رقص شاق جداً متعب، يعني لا بد أن ترقص على رؤوس أصابعها فهي تحتاج مران شديد، فقال: كان المربون يتعمدون أن يأخذون البنت وهي في أوج اندماجها في اللعب، فتؤخذ من اللعب وتؤمر بممارسة هذه الرياضة الشاقة أو هذا الفن، وهو إحدى فنون الجاهلية، فقيل: لماذا؟ قال: لأن هذا يربي إرادتها على كسر هذه الإرادة من أن تتوجه تاركةً الواجب إلى اللعب، يجب أن نربيه كيف يكسر إرادته.

ومن قبيل الاعتراف؛ لأن هذه الجلسات هي جلسات اعتراف، كنت إذا جلست مع أبنائي وحضروا مباراة مثلاً، وهذا قديماً أما اليوم لا أحد يحضر مباريات ولا أحد يجلس على التلفزيون، قديماً هذا، فكنت قبل انتهاء المباراة بربع ساعة أطفئ التلفزيون، ليس الضروري أن تعرف آخر المباراة، كيفية تعليم هذا الطفل الإرادة أن يقرأ، أن يتابع هذا الأمر بأنه واجب، ونحن للأسف الآن نقول: لا تكسر خاطره، ولكن نقول: كسر الخواطر يعلم قوة الإرادة.

فمما ينبغي أن نهتم به في قضية إطلاقاتنا لطرق التعليم، يجب أن نعرف واقعنا، لا يصح أن تجلب الطرق التي كان عليها السفيانان أو كان عليها الحمادان أو كان عليها أحمد أو كان عليها الشافعي رحمهم الله، فتأخذها في عصرهم إلى عصرنا، الأبناء كان يربيهم المجتمع، المجتمع فيه تدين، أنت الآن تربيه ليصارع المجتمع، وأما قديما فالمجتمع هو الذي ينميك، فالإمام الشافعي رحمه الله كيف

توجه إلى العلم؟ كان يحب الشعر ويجمع الشعر الهذليين كما يقول الأصمعي: «صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس»، رآه شيخه الزنجي، وسمي الزنجي لبياض وجهه وتسمية الأشياء بأضدادها، وجده يتقفر الشعر ويحب الشعر، قال له: يا قرشي، أنت قرشي دعك من الشعر وأقبل على الفقه، المجتمع رباه، العلماء في الطرقات يرونهم، العلم في الطرقات يمشي.

أنا دائماً أقول لا تنظروا للصورة السيئة في أخبار العلماء، هناك جانب مشرق فيها، يعني أيوب السختياني يمشي بسفيان الثوري إلى مجلس التحديث في العراق، فيقول له: كم عدد الحضور، قال له: خمسة آلاف، خمسة آلاف محبرة يجلسون في المسجد ليسجلوا حديث سفيان، فيقول له: لا يبقى منهم إلا خمسة، فيقول: فمضى الأمر فلم يبق إلا خمسة، هذه يأتي بها الإخباريون، يأتون بها على وجهه الذم للناس، وهو في الحقيقة هو جانبٌ مدحي لذلك الزمن، يعني عندنا خمس آلاف إنسان جلسوا طلب الحديث، فلما ذهبوا للتجارة ذهب مُحدثاً ولما ذهب زارعاً ذهب مُحدثاً يعني تربى، يعني المزارع كان متربي في مجلس الحديث، والتاجر متربي في مجلس الحديث، والمقاتل تخرج من مدرسة الحديث، فنحن نأخذ أنه خمسة فقط والباقي أين ذهبوا؟ ذهبوا بهذا العلم إلى حياتهم، التاجر ذهب مُحدثاً، فهو جانبٌ مشرق لذلك المجتمع، وهذا المجتمع مفقود الآن.

دعوني أستطرد؛ بعض الناس الآن يتحدث عن قضية الزواج من ثانية ليس تقدمةً ولا تأخرةً ولا تشجيعًا ولا ذمًا، لكن الأبناء، أبناء الضرات -وهذا الاسم غير شرعي وغير صحيح وإنما أبناء الأخوات فالنبي صلى الله عليه وسلم سمى الضرة أختًا- كانوا يحبون بعضهم، ولكنهم اليوم يبغضون بعضهم، لأن المجتمع يُنشئ البغض، فنحن نعيش في مجتمع يصارعك، في موضوع القراءة وأي موضوع، كل موضوع جليل يصارعك؛ فهذا عصر تفاهة، عصرنا هذا يا مشايخ عصر التفاهة، لا ينفع شيء له قيمة، أين الحديث عن الأخلاق؟ أين التربية على ما له قيمة كالصدق الأمانة الشجاعة الكرم؟ ومن ذلك أعظم عمل له قيمة هو القراءة، فأين هذا العمل الآن؟ كل الأمور ضده والمجتمع لا ينصرك ولا يشجعك، حتى في داخل بيتك.

والإمام أحمد رحمه الله كيف تربى؟ كانت أمه تقيمه قبل الفجر، وتزينه وتذهب به إلى المسجد بنفسها، وهكذا، وهذه ليست صفة خاصة فقط لأحمد رحمه الله، صفة خاصة لكل علمائنا، عندما أرى الفرق بين سيد قطب وابن تيمية، يكرهون هذه المقارنة لكن أنا مضطر أن أتكلم فيها، لنرى قيمة أننا بحاجة إلى أدوات جديدة لصراعنا مع المجتمع، ابن تيمية رحمه الله أبوه عالم وجده عالم، وهو صغير نشأ على العلم، وهو طفل، يقول عن نفسه وهو صغير: يحلم بمناظرة الرازي، تصور!! أي أنه قرأ للرازي وسمع ماذا يقول، ويحلم كيف يناظره، إذا قال: كذا قلت: كذا، فتصور هذا الرجل متى سيبدأ إنتاجه؟ سيبدأ إنتاج هذا العالم في العشرين من عمره، وهذا متأخر حتى، يعني عندما يحفظ القرآن في خمس سنوات وينتهي من الفقه في السبع سنوات، ومعه اللغة وكذا، فهذا الإمام عشرون سنة يصبح ممتلئ، فالشيخ متى كتب الرسالة؟ كتبها وعمره خمس وثلاثون سنة، هذا إنتاج مجتمعي.

والشافعي رحمه الله إنتاج مجتمع علماء كبير، أين يذهب يجد علماء يصارعونه ويصارعهم ويتعلمون منه ويتعلم منهم.

فأن تأتي لرجل تاب إلى الله بعد الأربعين، وبدأ يقرأ ما هو الإسلام بعد الأربعين، انظر ماذا سيحقق هذا؟ وماذا سيحقق ذاك؟

فلذلك عملية القراءة في ذاتها هي عملية صراع مع الواقع في زمننا هذا، فعندما يأتي شيخ ويقول: قدم لابنك كتاب قصص لنجيب الكيلاني، يقول: الكيلاني!! اتق الله، أين كتب ابن تيمية، كتب الشافعي؟ يا رجل كتب الشافعي!! أين الجريدة اليومية ليقرأها!! وليس كتب الشافعي!! هل قرأ الجريدة أصلاً، هو يقرأ جريدة يومية ويسمع الأخبار، فالكلام عن عملية القراءة لا ينبغي أن يبقى في أفقه الجمالي، نتحدث عن القراءة كأننا نعيش في مجتمع -ما شاء الله- الكتاب، فلنتحدث عن القراءة بمعنى ثمن الكتب، ونتحدث عن بلدي، عن الأردن، هؤلاء الذين يتطلعون للقراءة يتمنون أن يجدوا كتاباً مجانياً، فالكتاب اليوم كم يكلف من أكل الرجل وشربه وطعامه وخاصةً نعلم أن أغلب طلبة العلم هم معسرين.

وفي القراءة؛ لنتكلم كحديث، وهذا لما شرحته في «الأربعون الجياد» إلى الآن أنا أشعر بحيرة نحو هذا الحديث: (الخَيْل مَعقُودٌ في نَوَاصِيهَا الخَيْر إلى يوم القِيامة)، هذا الحديث فقط نبقيه على معنى الخير، وأما تطبيق هذا في بلادنا فهو شيءٌ مستحيل، فهل تعرف ما معنى أن تقني الخيل؟! أنت لا تتمنى أن يأتيك ابن جديد حتى لا يزيد المصروف!! تعال وطبق (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)، هذا الحديث في الصحيح، كم ستنفق على الخيل اليوم؟! كم ستشتريها أولاً؟! كم ستنفق عليه؟ تدخله البيت تجعله ينام في غرفة النوم بدل الأهل والأولاد!! نتحدث عن الخيل، هو حديثٌ تصوري عند الواقع تصطدم بكل معوقات الاقتناء وإعمالها، اليوم مظهر الخيل مظهر الأثرياء، كذلك القراءة اليوم.

فطلبة العلم يعانون في إحضار الكتب، ويعانون في الوصول إليها، ويعانون في... إلخ، فلذلك ما نحتاجه من أجل تذليل هذا العمل الجليل ما نحتاجه هو النظرة الواقعية، من أجل هذا تتم قضية الفتوى الآن، فالآن هذا يترتب عليه فتوى سرقة الكتب، ليس المقصود أن تدخل على بيته وتسرقه من جيبه، لا، المقصود أنك تنزل الكتاب بدون إذن صاحبه من أجل أن تقرأه، يعني هذا الكلام عليه في بلاد لا يمكن الوصول للكتاب، في بلاد الغرب لا يمكن الوصول للكتاب، أو إذا أردت أن تشتري كتاب تجد الرجل يضع الكتب كالكتب السخيفة بسعر رخيص، تشتري كتاب ست مئة صفحة بثلاث دنانير، تذهب إلى كتاب فقهي خمس مئة صفحة تجده بخمسة عشر دينار أو بعشرين دينار، هذا مما ينبغي أن يُبحث وأن نراه وأن نتعامل معه واقعياً وليس خيالياً.

هذا وأقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، جزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

ثامنًا: العلاقة بين الشهادة والقراءة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، هذا تسجيل سيكون موزعًا وملحقًا بقضية القراءة.

فأقول: أول ما ينبغي أن يقال –وهذه الكلمة صارت تتردد كثيرًا في زمننا هذا لصوابها ولإدراك كثير من العقلاء لواقعها–: عدم الربط بين الشهادة العلمية الجامعية الأكاديمية، وبين العلم الذي ينشأ عن طريق القراءة، فليس هناك ثمة علاقة بين الشهادة والقراءة.

وهذا ينتج المعادلة الثانية: ليس هناك ثمة علاقة بين الشهادة وبين العلم.

نريد أن نتكلم بصراحة: لماذا لا نجد هذه العلاقة؟

فالأصل أن تكون هناك ثمة علاقة كما نرى قديمًا؛ يعني عندما تحاول المقارنة بين الرسائل الجامعية القديمة وبين الشهادات والكتب والمؤلفات والرسائل العلمية الحديثة، فتجد الفرق الشاسع الكبير بينها، وبلا شك أن مستوى القراءة قد تدنى في داخل الأمة، وبالتالي كل المظاهر الأخرى تدنت، ومن ذلك الشهادات العلمية لأن الذي يُنشئ العلم هو القراءة.

فعندما أسمع ابني يقول لي: قال لنا دكتور في إحدى المحاضرات: أنا لم أقرأ كتابًا كاملاً قط في حياتي، هذا في الحقيقة ليس نموذجًا شاذًا عن السياق بل هو نموذج –في الحقيقة– نموذجي لواقع المدرسين، وأنا أتكلم هنا عن العلم مطلقًا ولكن أتكلم كذلك عن دارسي العلم الشرعي خصوصًا، أن المدرس في الجامعة فقد نموذجيته وفقد مثاله في أن يقدم صورة لمحبة العلم التي يستفيد منها الطالب فيحاول اللحاق به، ولذلك أسباب:

أولاً: أن الجامعات للأسف دارت عليها كأس الفساد، ولأضرب مثالاً بصراحة وبوضوح: كيف نشأت الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة؟ أساس الفكرة –كما سمعت من أكثر من جهة– بأن الشيخ أبو بكر الجزائري رحمه الله هو الذي طرح فكرة إنشاء الجامعة الإسلامية.

فالجامعة الإسلامية كانت فكرتها بأن الشهادة صارت ضرورة حياتية، بمعنى أنه لو ذهب رجل ما إلى الشيوخ ودرس على الشيوخ وصار بمرتبة الأئمة في الفقه، فإنه لا يستطيع أن يسمى عالماً ويدخل في زمرة العلماء ويدرس الناس بطريقة رسمية حتى يملك الشهادة، إذن كيف نجمع بين هذين الأمرين؟ بين كون الرجل عالماً درس على طريقة العلماء واستفاد من العلماء الحقيقين وبين حمله للشهادة؟ فلا بد أن ننشئ جامعة إسلامية، جامعة تعطي الشهادات العلمية ويكون فيها العلماء، فنجلب العلماء الذين يدرسون في المساجد والمعاهد العلمية إلى هذه الجامعة، حتى ولو لم يملكوا الشهادات.

وبالتالي؛ أنشئت الجامعة الإسلامية وأحضروا لها العلماء، يعني كان يدرس فيها العلماء بغض النظر عن وجود شهادة رسمية لهم، لكنهم علماء، وهم فوق مشايخ وعلماء الشهادات، أحضروا لها الشيخ ناصر الألباني وكان يدرس فيها أبو بكر الجزائري، كان يدرس فيها الشيخ الشنقيطي صاحب «أضواء البيان»، كان يدرس فيها عبد الرزاق عفيفي رحمه الله العالم الأصولي الشهير، والشيخ عطية سالم، وهكذا أحضروا علماء يدرسون العلم الشرعي بكل مستوياته العلمية العميقة وبالتالي؛ يخرج طالب العلم عالماً ويحمل الشهادة، هذا نموذج أخرج علماء.

وقالوا: الحركة العلمية في العالم الإسلامي بغض النظر عن الأسماء لا أريد أن أذكر الأسماء لكن كل من تسمعون به من الأسماء الكبيرة أغلبهم خرج من هذا الإطار.

فأين ذهبت هذه الصورة النموذجية في قضية الجامعة؟! ذهبت، سيطرت الحياة الرسمية عليها، طرد العلماء أو ماتوا ولم يأتوا بالبديل وبالتالي؛ صارت كما هي أي جامعة أخرى يدخل فيها فقط من حمل الشهادة بغض النظر عن مستواه العلمي، وبالتالي؛ صار يدخل فيها من يطلب الشهادة ليطلب الوظيفة فقط، فبقيت الشهادة وخرج العلم.

في بعض البلاد؛ كلية الشريعة مثلاً كان يدرس فيها دكاترة معهم شهادات، ومعهم علم؛ يعني ربوا على الطريقة الأولى في طلب العلم من المشايخ الأولين، ولكن لأسباب سياسية وكون هؤلاء المشايخ ليسوا من تنظيمات معينة فأزيلوا واستبدلوهم بأناس بطريقة ما لأنهم يرقصون ويطبلون لهم وهم فقط يحملون الشهادات، فوضعوهم.

وبالتالي؛ خرجت لنا هذه النماذج المشوهة الضعيفة علميًا، فلذلك صار الربط بين الشهادة وبين العلم غير موجود وصار الفصام الكبير بين طالب العلم وبين حامل الشهادة، فصار نموذج الدكتور أمامك هو مجرد إنسان يعني عندما أنا أجالس بعض طلبة العلم الذين يحرصون على الشهادات لضرورة الحياة ولضرورة العيش والتوظيف وممارسة الحياة، فتجد أنهم يتكلمون عن أحوال الشيوخ بما كان يسمي الشيخ محمد مختار الشنقيطي عندما يُسأل: ما هي شهادة الزور؟ فيقول: شهادة الزور هي شهادة الجامعة التي ستأخذها عقب الأربع سنوات، هذا تعريف شهادة الزور، لماذا؟ لأن الدكتور نفسه الذي يدرس هو فاقد لا يعرف شيئًا، هذا سبب.

السبب الثاني: وهو أن الذي أفقد العلمية الشرعية أن هذه النماذج، النموذج الأول: في ضعفهم العلمي، النموذج الثاني: في قضية ظنهم سهولة العلم، كيف؟ كل مسألة في خلاف، هذا مما سهل ومع عدم وجود فقه الدليل وعدم وجود الاجتهاد فيما هو الأقرب والأقوى إلا بتصورات ذهنية خاصة مبنية على المصلحة، مبنية على الرؤى الذاتية والاستحسان والتشهي، فصار مفهوم العلم يعني أنه سهل فلا يوجد ضرورة للقراءة، لماذا أذهب لـ «المجموع» فأقرأ «المجموع» أو «المغني» و«المحلى» لابن حزم أو أحفظ «منهاج الطالبين» للنووي أو أقرأ «روضة الطالبين» له، أو أقرأ «الوسيط»، لماذا أقرأ هذه الكتب؟! كل مسألة تأتيني أعلم أن فيها خلاف، فأقول للسائل أن فيها خلاف، فما هو الصواب؟ حينئذٍ يبدأ التشهي بصورته القبيحة القذرة، أن أقرب الأقوال هذا هو القول، أحسن الأقوال هذا القول، الذي يلائم هذا الوقت هذا القول.

فإذن صار العلم الشرعي سهلاً ميسورًا يمارسه العامي، وهذا نجده حتى في المساجد، فلو جلس الدكتور يحمل دكتوراه في الشريعة مع رجل عامي يجلس في المسجد، فلا تجد الفرق بينهما، هذا يعلم أن في المسألة خلاف وهذا يعلم أن في المسألة خلاف إذا كان له اطلاع يسير وحينئذٍ يختار كل واحدٍ منهم ما تشتهي نفسه، فالعلم الشرعي صار سهل بهذا المفهوم الفاسد!! فلا يوجد ضرورة أن نتعب في تحصيله ولا يوجد ضرورة لأن نقرأ، وهكذا المسألة فهذه إحدى صور إفساد الحياة العلمية في حياتنا.

السبب الثالث والصورة الثالثة التي فسد فيها العلم: أن الحياة الرسمية للعلماء صارت مُهانة في قضية قراراتها المتعلقة بمجموع الأمة، الأمة لها فطرة ولها ميزان في الحكم على العالم، فحين تسقط صورة العالم من خلال نماذج مشوهة يسقط العلم وراءه.

فمثلاً: عندما يأتي شيخ ويتكلم عن التطبيع مع اليهود، كلمة التطبيع كلمة جديدة ولكن لها مفهوم سياسي معلوم، وهي ليست فقط قضية الصلح بل قضية الحب والعناق وإدخال اليهود في المناهج التعليمية وفي الحياة الأسرية وفي الحياة السياسية وو... إلخ، فيصبحون أولاد العمومة وممنوع أن نتكلم عنهم، وتُسجن إذا تكلمت عن قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]، وفسرتها.

فعندما يدرك الناس والجموع والشباب بأن العلماء الرسميين يسقطون فيما هو يخالف الفطرة، فحينئذٍ يسقط العلم، وهذه الجريمة في الحقيقة جريمة مركبة يقترفها العالم أكثر من جريمة اقتراف العامي للمعصية، العالم حين يقترف المعصية يعطي تشريعًا لهذه المعصية، يشرعها، بخلاف العامي فالعامي لا يشرعها وبالتالي؛ عندما سقط العلماء واقعيًا أسقطوا العلم معهم، هذه نقطة مهمة جدًا.

القصد من هذا: بأننا حين نتحدث عن انتشار العلم في زمننا هذا نجد الفُصام بين أناس ربما يفرغون للعلم وهم قلة ويعزلوا عن الحياة لأن محاربة العلم في المساجد من مهمات الدولة الحديثة، أنا أتكلم عن الأردن، أنا جئت إلى هنا وإلى هذه اللحظة لم أجد أحد يدرس في المسجد إلا جماعة التبليغ، مكثت في أحد البيوت جار لمسجد، مكثت سنتين لم أجد درسًا في المسجد إلا لما حضرت جماعة التبليغ، وتعرفون جماعة التبليغ لا تدرس العلم كما يقولون تدرس الفضائل، يعني يقرؤوا رياض الصالحين وانتهى الموضوع فهذا مستوى ما يقرؤون من غير تفسير، حتى لو كانت الدراسة لكتاب عظيم والعالم إذا دخل فيه أخرج منه الدرر والجواهر والياقوت، لكن التبليغي يأخذ منه بما يأخذ به العامي، هو ليس من الدروس العلمية التي يشد إليها، وهكذا مسجد لأربع سنوات لم أجد مدرسًا فيه بل يمنع المدرس.

فإذن الناس فقدوا العلم يحتاج إلى محفز، وقد يكون المحفز في الابتداء كما قال صالحنا وأنكرها ابن حزم وإنكاره ينكر عليه، «طلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون له»، بمعنى أن هناك من يطلب العلم من أجل منصب ثم بعد ذلك يشده العلم إلى التقوى، اليوم الذي يشد إلى المنصب ويشد إلى المال هو الفاسد وليس العالم.

ويُذكر في كتب النوادر والطرائف أن هاشميًا زار مكة فسمع عن الهاشميٍ يحفظ القرآن في مكة فلم يجد هاشميًا واحدًا يحفظ القرآن، فأعطى جائزة إذا حضر السنة القادمة في الحج من وجده من الهاشميين يحفظ القرآن فيعطيه هذه الهدية؛ فرجع فوجد ثلاث، أربعة وهكذا بدأ يزيد حتى حفظ القرآن أغلب الهاشميين في مكة بهذه الجائزة.

وعلى كل حال –في الحقيقة– فإنَّ الحديث عن الجانب العلمي الشرعي هو حديث عن الجانب العلمي في كل العلوم؛ فلا تظن أن الجانب الآخر أيَّ علمٍ كان؛ أنه أحسن بل هو أسوأ بكثير جدًا، فعندما كان الناس يشترون الدواوين الشعرية، بتَّ اليوم لا تجد شعرًا؛ فلا تجد شعرًا ولا تجد شاريًا، وعندما كنا نذهب ونحن صغار لقراءة الروايات كانت روايات، ولكن حتى فن الرواية اليوم صار قذرًا سمجًا لا وجود له، وعندما تذهب فتقرأ كتب التاريخ المعاصر، فالمسألة فيها نضوب، والحقيقة أنَّ هذا كله ظهر مع انتشار القلم، لكنه القلم الصوري المتعلق بالصورة وليس القلم الكتابي.

حتى أنني كتبت مقالاً بعنوان «العقيدة في لقطة فيديو»، يعني الناس صاروا يأخذون عقيدتهم من الفيديو من الصورة وليس من الكلام والشرح، وهذه رددت فيها على بعض الجماعات التي سوقت للناس لعقيدتها عن طريق الصور وليس عن طريق العقائد، فصار الثقب الأسود الذي يبتلع الناس هي الصورة، وأما الكتب وما يمت إليها فقد غابت عن أذهان الناس.

وللأسف؛ هذه البيئة التي بقيت تتسم بصفة العلم صار عندها أمراض شديدة؛ منها مرض الحسد، ومرض الإسقاط، أي بدل أن يشجع العلماء بعضهم بعضًا، وحتى لو وجدت الأخطاء ولكن يشجعون ويقرضون الكتب ويقدمونها للناس ويسهلون أمرها، فهل بيننا من هو بمستوى الشيخ محمد بن صالح العُثيمين رحمه الله عندما يشرح كتاب «حلية طالب العلم» لبكر أبو زيد المعاصر له؟!

أم أنك إذا قرأت الكتاب لمعاصر فأول ما تبحث عن مثالبه لتنشرها فيتم التنفير؟ يعني حتى البيئة العلمية التي بقيت كنقطة بيضاء في جلد ثورٍ أسود، حتى هذه النقطة التي بقيت هي بقيت مشوهة وفي داخلها الصراعات التي تطرد النماذج الحسنة من داخلها.

هذا بعض مما ينبغي أن يهتم له ولكن بلا شك أن الافتراق بين الشهادة وبين العلم في كل ميادين الحياة هذا شيءٌ موجود، وإن كانت الشهادة بقيت ضرورة للأسف إنما الافتراق مازال يزداد في مساحته، يزداد في نماذجه في واقع الحياة بين الشهادة وبين العلم.

من الصور التي نتحدث عنها في هذا الباب: أن كثيرًا ممن كان لهم اهتمام بالقراءة هربوا منها، وهذا نجده من خلال بيع المكتبات، فأنت إذا رجعت إلى بعض مواطن بيع الكتب تجد أن أغلبهم يبيعون مكتباتهم، معنى هذا أن الذي كان يقرأ قد فقد متعة القراءة وبالتالي بدأ يتحلل منها من خلال بيع الكتب، وحتى أن بعضهم لا يبيعها ولكن يتبرع بها.

لا أريد أن أتكلم عن القراءة والاقتصاد، القراءة والقوة المادية، أي إذا أردت القراءة في زمننا هذا لا بد أن يكون لك قدرة مادية من أجل أن تحضر الكتب، وهذا شيء مهم جدًا، الناس لا يجدون لقمة الخبز في بعض البلاد فكيف يذهبون فيشترون كتابًا بدل رغيف الخبز؟! هذه مسألة ولكن في الحقيقة حتى الذين يمكن لهم أن يشتروا الكتب فقدوا متعة القراءة فبدؤوا يبيعون كتبهم.

وهناك صورة من بيع الكتب للأسف قبيحة جدًا وهي بيع الورثة مكتبة أبيهم، فبدل أن يهتموا بها ويكونوا أوفياء لعلم أبيهم ويحفظونه وينشرونه ويضعونه إذا قدروا موضعًا للتبرع ليستفاد منه للعاملين والنظر لأن العلماء عندما يقرأون الكتب يعلقون، فالكثير من العلماء لهم تعليقات على كتب تكاد تكون نفائس من العلوم في هذه التعليقات لكنهم يبيعونها وتبدأ التجارة وغير ذلك، وهناك من يُتبرع إليهم فيضعون الكتب في أكياس وفي صناديق وترمى في داخل السراديب وهذه قصص مؤسفة تدل على انحطاط مستوى القراءة في أمتنا.

إنما لماذا يتخلى هؤلاء؟ نفس الأسباب التي ذكرناها، هناك أوقات كانت القراءة وبعض الكتب لها صولتها وكتب بعض أهل العلم لها قيمتها، فعندما كان الأستاذ مصطفى صادق الرافعي عندما كان يكتب مقالاً في الرسالة يتدافع الناس لشرائها، أنا أذكر أن مجلة «العربي» عندما كانت تصدر كانت الناس يتقاتلون عليها، ويوصون الباعة والموزعين بها قبل أيام ويدفعون لهم الرشاوى والأثمان الغالية ليحصلوا عليها، أما اليوم هذا غير موجود، فقد الناس هذا وبدؤوا يبيعونها ويستغنون عنها وذهب هذا الجيل، جيل رواد من القراء ذهب واستعاضوا عنه جيل المغنين والراقصات والراقصين والصورة، فهذه صورة من الصور الفساد الذين نعيشه.

ومن الأمراض -وأختم بهذا هذا اللقاء-: أن الذي لا يقرأ يظن نفسه عالماً، فمتى تكتشف نفسك عندما تقرأ؟ الآن أي كتاب تضعه، يسألك ماذا فيه؟ لو سألك رجل ماذا في «المغني»؟ ماذا في كتاب «الإتقان» للسيوطي؟ يقول هو يتكلم عن علوم القرآن وعن أسباب النزول، وخلاص انتهى يشعر أنه ختم العلم، هذا هو!! وإذا سئل يظن أنه قد امتلك فهم الكتاب وعلم الكتاب وحروف الكتاب وذهن السيوطي!! صار مملوكًا له! ويبقى على هذه الصورة من التزوير والخيانة لنفسه، حتى يذهب فيقرأ؛ فيكتشف أن كل كلمة فيه هي علم وكان جاهلاً بها.

كثرة القراءة تكشف لك مدى جهلك فتدفعك للقراءة للبحث عن النور والمخارج والحقائق، والبعد عن القراءة سبحان الله هذا يوقعك في حط ما يمكن أن يتمثل به الإنسان وهو أنه يظن نفسه عالم ويبدأ الغرور حتى يصل إلى الشيطان أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فأنا خيرٌ منه.

أجلسُ مع بعض الناس فيقولون: التاريخ يحتاج إلى قراءة جديدة، وأنت لما تسمع له تظن أنه قد قرأ تاريخ «الأمم والملوك» للطبري، وقرأ «الكامل» لابن الأثير، وقرأ «البداية والنهاية» لابن كثير، وقرأ «المنتظم» لابن الجوزي، وقرأ كتب التاريخ.. فتظن أنه قد أخرج هذه العبارة بعد أن قرأ كتب التاريخ وبالتالي أراد أن يُنشئ قراءةً جديدة لكتب التاريخ أو كتابة جديدة لكتب التاريخ، وفي الحقيقة أنه بين قوسين «حمار»، يعني لم يقرأ شيئًا فيها، أتكلم حقيقة.

كالذي يأتي من يقول: وصحيح البخاري فيه أحاديث ضعيفة!! وهو لا يدري، لو سئل ما هو منهج البخاري في صحيحه فلا يدري!! الذي يكتشف جهله هو الذي يقرأ، وكلما اكتشف جهله كلما ارتقى علمًا، الذي يكتشف جهله يرتقي، والذي يظن نفسه أنه علم وصل إلى أحط مراتب الإنسانية أنه جاهل ويظن نفسه عالم، أحط مراتب الإنسانية أن يظن المرء نفسه أنه صاحب خلق وهو من أسوأ خلق الله، أحط مراتب الإنسانية أن يظن نفسه محبوب عند الناس والناس يبغضونه ويستعيذون بالله من شره، شر الناس هو الذي يظن أنه عالم وهو جاهل، وهذا الخلق لا يتأتى إلا بعرض نفسك على المرآة، وإذا فقدت المرأة تخيلت كل الخيالات الباطلة التي ذكرناها وأكثر من ذلك، والمرأة هي القراءة والمرأة هي النظر في عقول الناس ومعرفة هم عليه.

والكثير من الناس ينظر إلى أغلفة الكتب؛ فيظن أنه قد امتلك هذه الكتب وعرف ما فيها، والاكتشاف الحقيقي للذات وللكتاب هو أن تقرأ الكتاب.

والقراءة في الحقيقة هي إحدى ضحايا هذا العصر، فالقراءة ضحية من ضحايا هذا العصر، وخُلُقٌ مفقود، لم يبقَ من الأوفياء لهذا الخُلُق المفقود إلا القليل من الناس، وهم يعانون من الناحية المادية كثيرًا، ويعانون من جهل الناس بأهميتهم، فالمرء عندما يظن أنه مهم يزداد اهتمام بموضوعه الذي جعله مهمًا عند الناس، فأنت مهم لماذا؟ لأني كذا وكذا؛ فتهتم ببضاعتك وصناعتك، لكن عندما تجلس وتتكلم وهذا من أشق ما ترى أنك ربما تكون في المسألة قد قرأت فيها خمسة كتب، ستة كتب، ويأتي جاهل ويتكلم بها بدون أن يدري ربما سمع في المسألة في يومي هذا وتجد الناس يصفقون لتهريجه ولأنه يمشي على منوالهم في الغناء والطبل والتزمير فيحبونه وينبذون الغالي.

المسألة هي فقدان موازين الناس لا يفرقون بين الذهب وبين التراب، لا يفرقون بين القيم الحقيقية الجميلة من الأخلاق والسلوك والعمل والممارسات وبين المزور الكاذب الفاسد، كل شيءٍ قد تغير في زماننا هذا، ولما تغير العلم تغير الخُلُق ولما تغير الخُلُق تغير الدين ولما تغير الدين تغيرت معاير الناس وهكذا فصرنا في شر حال، نسأل الله العفو والعافية، نسأل الله عز وجل أن يبقي هؤلاء الذين هم أوفياء للقراءة العلمية الرشيدة التي قال الله عز وجل عنها: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾

[العلق: ١]، ليس مجرد القراءة لكن أن تقرأ قراءة التعبد لله عز وجل فترتقي وتزداد معرفة، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته.

وأختم بهذه الكلمة: ليرحم هؤلاء الأوفياء لعلم القراءة أنفسهم؛ بأن لا يحسدوا بعضهم البعض، لأنهم قلة، فالمعركة التي يخوضونها: يمثلها مساحة صغيرة من الناس، مساحة قليلة جدًا، فليرحموا على أنفسهم؛ فالمساحة تتسع لهم لقلتهم، فليرحم بعضهم بعضًا ولينظروا إلى أنفسهم كفقراء يتكاتفون من أجل القِوامة والقيام بالحق فيما بينهم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات